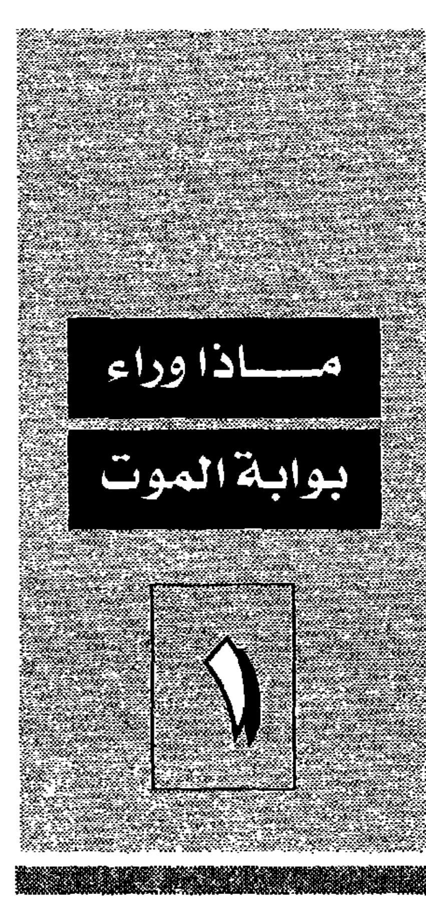
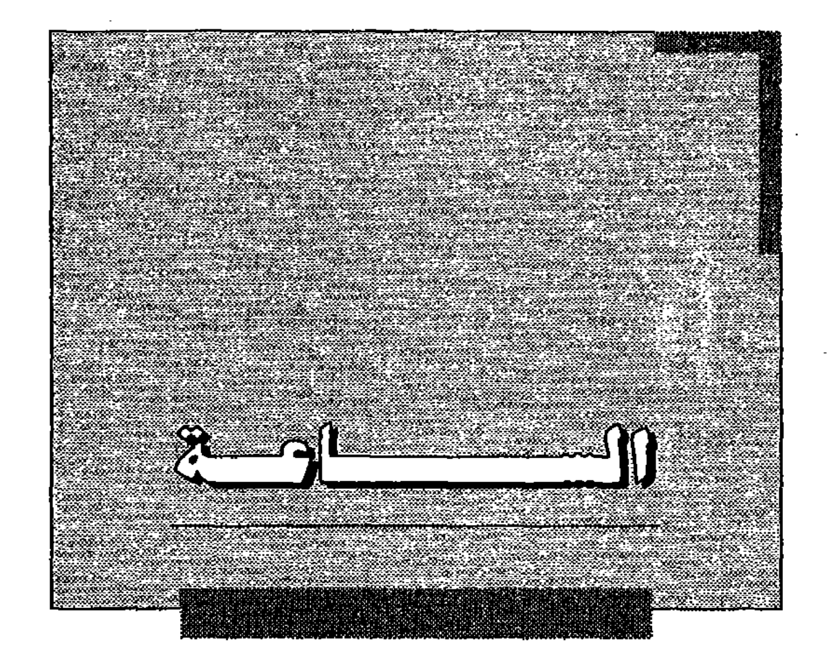
ماذا وراء بوابة الموت ؟

د. مصطفى محمود



مــاذا وراء
بوابة الموت
١



الســاعة

أهل الكهف الذين لبثوا نياما فى كهفهم ثلاثمائة سنة قالوا حينما تيقظوا من رقدتهم للسائل الذى سأل: كم لبثتم.. قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم.. والذى أماته الله مائة عام ثم بعثه قال نفس الجواب: يوما أو بعض يوم .

﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ (الروم: ٥٥)

هكذا يحكى القرآن عن المجرمين وما قدروه للزمن الذى عاشوه فى الدنيا والذى لبثوه فى رقدة القبر.. إنه كان مجرد ساعة.

ويقول الله لرسوله عن الكافرين ناصحا له ومطمئنا:

﴿ ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار.. بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ (الأحقاف:٣٥)

إنها أيضا كانت بطولها وعرضها مجرد ساعة.

ثم يقول ـ وهو أصدق القائلين ـ بشكل عام ومجمل عن خلقه حين يبعثون: **﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون بينهم ﴾** (يونس: ٤٥)

والأمر فى البداية يبدو محيرا، فالذى لبث ثلاثمائة سنة يقول: إنها بعض يوم ، والذى لبث مائة سنة يقول نفس الشىء كأنه

لا فرق بين المائة والثلاثمائة.. والمجرم الذى عاش ثمانين عاما ثم مات يقول لحظة البعث إنها كانت ساعة والمجرم الذى عاش خمسين عاما فقط يقول لحظة البعث: إنها كانت ساعة، والمجرم الذى عاش تسعين عاما فقط يقول لحظة بعثه، ويقسم إنها كانت ساعة.. وقد استوى الذى مات شابا والذى مات شيخا فالأربعون كالتسعون كالثمانون.. استوت فى الوعى بأنها لا تزيد على ساعة.. وكذلك الثلاثمائة عام بالمائة عام.

ويقول الله ـ وهو أصدق القائلين ـ إن هذا هو الحال العام لكل البشرية لحظة بعثها.. إن آلاف السنين التى مضت وانقضت فى عصور تلو عصور وتعاقبت بين خلافات وحروب أو أوقات سلم ورخاء يتعارفون فيها بينهم كلها كانت مجرد ساعة.. أو هكذا بدت فى وعيهم الجديد.

وتنجلى الحيرة حين نعلم أن الوعى الجديد فى الآخرة هو شعور مختلف ووعى مختلف بالامتداد والأبدية.. بينما كانت الدنيا فى حياتهم الأولى مجرد زمن ومجرد ثوان تترى لا تأبيد فيها. وأى مقدار زمنى بالنسبة للأبدية هو كم مهمل.. كما نقول فى الحساب: إن أى رقم بالنسبة للانهاية هو صفر أو أقرب ما يكون إلى الصفر.. تستوى فى ذلك العشرة والعشرون والألف والمليون كلها مقادير تافهة ومهملة بالنسبة إلى اللانهاية.. فيقول شعورنا عنها: إنها كانت مجرد ساعة تقليلا لشأنها ويصادق الله على كلامنا، فيقول هى كذلك وكأنما يقول لنا الله معاتبا:

أما كان يجب أن تصبروا على تلك الساعة بحلوها ومرها وتتعاشروا بالمعروف بدلا من أن يقتل بعضكم بعضا على ثوان تافهة من السعادة وترتكبوا كل تلك المظالم وتحملوا كل تلك

الأوزار على زمن مخادع لا يساوى شيئا فى عمر الأبدية التى ستغدو الآن عذابا مؤبدا وبؤسا مقيما لا انقضاء له.

إنها النسبية القاتلة حينما تصبح قدرا، والملايين حينما تصبح صفرا، والعز حينما ينقلب ذلا، والكبر حينما يغدو صغارا، والغنى حينما يصير فقرا.. وإلى الأبد.. والآن يا سادة.. وقد علمتم أن الدنيا كلها كانت مجرد ساعة ، فهلا أدركتم ماذا تبقى فى حياتكم من دقائق فى تلك الساعة؟

وهلا عجلتم لتدارك أخطائكم وإصلاح شأنكم فى الثوانى الباقية من أعماركم (وما تبقى لا يزيد عن ثوان فى الحساب الحقيقى) ومن حسن الحظ إننا لا نزال جميعا أحياء نسعى ونروح ونغدو فى تلك الأيام والشهور والسنين التى هى أشبه بالوهم.. وأننا يمكن أن نتدارك الأمر ونفيق من الغفلة.

وما نقوله للفرد منا.. نقوله للأمم.. نقوله لإسرائيل ـ كمثال ـ التى تريد أن تعلو وتهيمن وتحكم بالمكر والظلم والقوة الأمريكية والقنابل الذرية.. لمدة ثلاث دقائق، أو بالحقيقة ثوان.. نعم هى ثلاث ثوان فى المقدار الباقى من الساعة، ومن عمر التاريخ الممتد فى الوهم والخيال والذى يبدو فى أعيننا كأنه دهر.

ومن حسن الحظ أن الكارثة لم تبدأ بعد وأنه يمكن تدارك الأمر بطرح الغرور وخلع رداء الكبر والاستعلاء والسعى إلى السلام بنية صادقة.

أقول هذا الكلام وأنا أعلم أنى أتمنى على الله الأمانى.. وأن قضاء الله قد سبق، وقلم المشيئة قد كتب بشأن إسرائيل ما لا رجعة فيه، وأنها ستعلو وتفسد وتظلم، وأن الدمار نازل بها لا محالة وسوء الخاتمة لاحق بها لا مفر.

والله يقول لهم: ﴿ إن أحسنتم أحسنتــم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾.

وهو يعلم سبحـانه أنهم سوف يسيـئون.. يقول : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم﴾.

إشـارة إلى ما ســوف يفـعله المســلمون بدخـولهم المسـجد وبتدميرهم كل ما رفع اليهود من بناء وكل ما عمروا من هياكل.

ولأن الإسـلام وقرآنه يقول هذا ويتنبـأ لهم بهذا الشؤم. تحرك إسرائيل العالم وتؤلبه على الإسـلام، وعلى المسلمين وتخطط من وراء الستار فى كل ما يجرى لإثارة الدنيا على الإسلام وأهله.

وآخر ما حدث فى هذا المسلسل كانت مؤامرة الموساد لنسف مقـر الأمم المتحدة فـى نيويورك التى كشفـت التحقيـقات تورط جماعـات الضغط الصهيونى فـيها ثم حاولت الحكومـة الأمريكية التعمية على تلك التحقيـقات.. وكان الأمل إلصاق التهمة بأى جهة إسلامية.. كالعادة.

ومن قبل ذلك كان اشتراك الموساد فى مـؤامرة تفجير كنيسة سيدة النجـاة فى لبنان لنفس الهدف.. لاتهام الأيدى الإســلامية.. ولإثارة الحرب الأهلية من جـديد بين المسلمين والمسيـحيين فى لبنان.

والمسلسل مستمر لتـشويه وتلطيخ الإسلام وأهله بكل خسيس ودنىء من التهم، ولم يبق من الساعة إلا بضع ثوان تريدها إسرائيل لنفسـهاعلوا واستكبارا فى الأرض وتطلب هذا العلو بأى ثمن.

ولن يجدى نصـحى شيئـا ولن يغيـر من قدر الله شيـئا، ولن يمحـو حرفـا مما كـتب الله لهم.. وأتذكـر كلمات نوح لقـومه من الكفار: ﴿ ولا ينفـعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كـان الله يريد أن يغويكم ﴾ (هود: ٣٤)

وقوله لهم فى مكان آخر يائسا من إصلاحهم:

﴿يا قوم أرأيت إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾.

ذلك لأنه لا إكراه فى سنة الله على شىء ولو كـان على الخير، وأن التخيير هو الأساس فى كل عمل لأنه أساس التكليف والثواب والعقاب.

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

وقد خيـر الله الجمادات فعرض عليهـا الأمانة وأن تكون حرة مسئولة فى حركتها أو مسيرة بالقانون الإلهى:

﴿ إنا عـرضنا الأمـانة على السـموات والأرض والـجبـال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾.

ففضلت أن تكون مسيرة بقدر الله.

والإنسان وهو القمة فى المخلوقات أقبل على حمل تلك الأمانة فى رعونة وجـهالة، وأصبح مـخيـرا فيمـا يفعل من خيـر وشر.. والداخلون إلى الـجـحـيم سـوف يدخلونهـا بأرجلهـم وبعنادهم ورفضهم.. وقـد لعنت التوراة اليهود لصلفـهم وعنادهم ورقابهم المتصلبة، وقال فيهم الإنجيل ما هو أكثر .

وها نحن أولاء قد رأينا المسلمين يتنازلون ويوقعون ويبدأون بالسلام.. وأول من ذهب إلى الكنيست كان أنور السادات المسلم.. هو الذى مد يده بالسلام وهو منتصر وغالب.

ورأينا الطرف الإسرائيلى يقـدم رجلا ويؤخر أخرى، وسـمعنا رابين يقول: أصـافح بيد واليـد الأخرى على الزناد.. وسـمعناهم يترنمون بأناشيد الســلام، ويرجمون الجنوب اللبنانى بالصواريخ

ويحتلون المزيد من الأراضى ويبنون المزيد من المستوطنات فى نفس الوقت، ورأيناهم يطاردون العـراق وكوريا الشمـالية وإيران وباكســتان بالاتهـام بصناعة القنبلة الذرية.. وينكـرون عليهم أى بحث فى إنتاج هـذا السلاح، بينما هم يملكـون مائتى رأس نووية جاهزة للاطلاق.. ولا يـتحرك العـالم للإنكار عليهم أو تفـتيـشـهم أو مطالبتهم بحظر تلك الأسلحة المدمرة.

العالم كله يساندهم فى ظلمهم ويبـرر لهم كل ما يفعلون بينما يضغط علينا للمزيد من التنازلات.

وإسرائيل تريد التطبيع فوريا وكـاملا دون أن تتنازل عن شبر من الأرض، بل علـى العكس تحـتل كل يوم المــزيد من الأرض، وتبنى المزيد من المستوطنات، وتغير بطائراتها على أراضى الغير التى لا تملكها وتدكها بالقنابل وتقتل وتحرق الأرض والزرع على مشـهد من العالم، وتطالب بالتطبـيع وهى شاهرة سلاحها النووى فى وجه العرب.. وما هو بتطبيع بل تركيع.

إنهـا التاجـر الجشع الذى يريد أن يقـبض الثمن ولا يقـدم فى مقابله شيئا، وهى الطاغية الذى يباشر القتل والطغيان ويرفض أن يحاسب على جرائمه.. وهى تنسى أن ملكها ودولتها لم يتبق منها إلا دقائق وربما ثوان فى الســاعة الإلهية التى منحـها الله للدنيا.. وعقرب الثوانى يدق ثانية بثانية ويقترب من الصفر.

ولكنها هى والعالم فى سكرة.

وهى تظن أن أمامها الدهر كله لتعلو وتحكم وتسود وما هو إلا الوهم ولا يزال كلام الـله الذى قاله لموسى فى طـور سيناء يرن فى أذن الأبدية:

﴿ إن الســاعة آتــية أكــاد أخــفيــهـا لتجـزى كل نفس بمــا تسعى ﴾

ولا يزال عقرب الدقائق يجرى منذ ذلك التاريخ وعقرب الثوانى يسرع إلى غايته وقد أوشك العد على النهاية.

فى منتصف العمر

وقفت أمام قبر الرسـول الكريم منكس الرأس حياء وقد هربت منى الكلمات:

كلى حياء منك يا رسول الله..

أحسنت بالتبليغ عن ربك ومـا أحسنا.. وأحسنت النصح لأمتك وما نصـحنا.. وحملت كتابك بقـوة وما حملنا.. وانتـصرت للحق وما انتصـرنا.. واكتفى بعضنا بـلحيته وقال هى سنـتك.. وقصر البعض جلبابه وقال هو أمرك.. واسـتسهلوا السهل وخانوا الأهل، واكتفوا من الدين بقشرته، ومن الجهـاد بسيرته.. وقعدوا وقعدنا معهم.. وركب أكتافنا الدون والسوقة ورعاع الناس وشذاذ الآفاق وسفحوا دماءنا واستباحوا أرضنا وشتتوا شملنا.

يا نصـير اليـتامى وجـاه الضـعـفـاء والمنكسرين، لن أسـألك الشفـاعة فلا توجـد فى عقـيدتنا شفـاعة، بمعـنى «الوساطة» فى الآخـرة لرفع الذنوب وإنمـا الشفـاعـة فى كتـابنا تعنى «العـمل» وشفـيع الإنسان عمله وحـده وكسبـه وما صنع وما قـدم.. وإنما أسأل الله بجـاهك أن يختم لنا بتـوبة وأن يرضـى عنا، فقـد وعدنا ووعده الحق أننا سندخل المسجد كما دخلناه أول مرة، وسندمـر كل مارفـعت إسرائيل مـن بناء، وكل ما شـيدت من هياكــل.. فلا توبة لنا إلا بتـوبته، ولا رضـا إلا برضـاه.. ولا مدخل إلى طاعـته إلا من بابك، ولا قربى إلا من رحابك.

ادع لنا ألا يطول علينا الليل وألا يدركنا الويل.

والســلام عليك يا محـمد وصـلوات الله عليك يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حيا.

والسلام على الكرام البررة، سادة البـشر وأئمة الدنيا.. السلام على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى.. والنجوم الزواهر من صحابتك الذين عاشوا تحت ظلال السيـوف، وادع لنا نحن جندك فى مصر الذين قلت عنا: أننا خير أجناد الأرض، وإننا فى رباط إلى أن تقوم الساعـة.. أن نكون عند حسن ظنك.. وأن نكون مـصداقـا لنبوءتك وآية لرسالتك.

والسـلام عليك إلى يوم يقوم الأشـهاد.


مـــاذا وراء
بوابة الموت
٢


مـــاذا وراء
بـوابة المـوت

الكتب الصفراء التى تكتب عن عذاب القبر وتروى التفاصيل والمشاهد والحكايات عما يجرى داخل القبر وعن الملكين ناكر ونكير وما يقولان للميت وما يقوله الميت دفاعا عن نفسه وألوان العذاب التى يلقاها.. هى كتب كثيرة تملأ الأرصفة ويتهافت عليها الناس وأكثر ما فى هذه الكتب تخيلات.. والقضية غيبية لا علم لأحد بها والمرجع الوحيد فيها هو كلام القرآن وشهادة عالم الغيب والشهادة عن هذه الأسرار.

وما ورد في القرآن عن مصير المجرمين والجبارين واضح وقاطع.. فعذاب هؤلاء الجبارين لا ينتظر رقدتهم فى قبورهم ولا ينتظر انصراف آخر المعزين والمشيعين.. وإنما هو يلحق بهم فور موتهم وفور سقوط الواحد منهم فى مكتبه بالسكتة أو بالشيخوخة أو هبوط الدورة الدموية.. وقبل أن تكون هناك جنازة يصطف وراءها المشيعون ويهلل الأتباع والأشياع ويملأون الصحف بمقالات التمجيد.. قبل كل هذا.. وساعة الموت.. يفتح الستار عن المفاجأة وينكشف الغيب وتتوالى الأحداث.

ماذا يقول القرآن؟!

﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم.. أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون

بمـا كنتم تقـولون على اللـه غـيـر الحق وكنتـم عن آياته تستكبرون﴾ (الأنعام: الآية ٩٣)

.. اليوم.. إنها سـاعة خروج النفس المجـرمة من البدن ولحظة المـوت يتلقاها مـلائكة العذاب بـاسطى أيديهم.. بماذا؟؟ بالعـذاب الهون.. ونقرأ فى آية أخرى تفصيلا أكثر لهذا العذاب الهون:

﴿ولو ترى إذ يتـوفـى الذين كـفـروا المـلائـكة يضـربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق﴾ (الأنفال: الاية٥٠)

ويتكرر نفس المعنى فى سورة محمد الآية ٢٧

﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم.. ذلك بأنهم اتبـعوا مـا أسخـط الله وكرهوا رضـوانه فأحـبط أعمالهم ﴾

وإحـبـاط الأعـمال إشـارة إلى أنهـم كانـوا أصحـاب أعـمـال وإنجازات وأمجاد دنيوية.

إنه الضـرب على الوجـوه (والوجـوه هى رمـز التكريم) وعلى الأدبار وتلك غاية الإهانة.

ولا توجد إشـارة إلى أن الملائكة ينتظرون إعلان خبـر الموت فى الجرائد أو أنهم.. يتقاطرون وراء المشـيعين فى انتظار انتهاء مراسـيم الدفن وانصراف الأهل والأصحاب.. وإنمـا الضرب يأتى فور خروج النفس من البدن وهى صورة أشبه بالاستقبال الحافل لأصحاب الملايين عـند نزولهم من الطائرة.. ولكن على وجه آخر غير متوقع وغير مألوف.. فهى صحوة أشبه بالصدمة.

وهناك استـقبال فـورى من نوع آخر ينتظر الصـالحين.. وهو يحدث فـور تجاوز النفس حدود الحلقـوم وخروجها من الجـسد لحظة الحشرجة دون انتظار لجنازة أو تشييع أو دفن.

يقـول القـرآن عن لحظة الحـشـرجـة هذه: **﴿ فلولا إذا بلغت**

الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم (أى أقرب إلى الرجل الذى يحتضر) ولكن لا تبصرون.. فلولا إن كنتم غيرمدينين ترجعونها إن كنتم صادقين.. فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم.. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾

(الواقعة: الآيات ٨٢ ـ ٩١)

إنه استقبال بالورد والريحان والترحاب والسلام والتحيات

﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو حق اليقين ﴾

(الواقعة: الآية ٩٢ ـ ٩٣)

والجحيم هنا هو المنزل المعد ساعتها لنزول المكذبين الضالين.. أما الأتقياء الطيبون فلهم مصير آخر.

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ (النحل: الآية٣٢)

فإذا جئنا إلى قوم نوح فإنا نراهم يدخلون النار فور غرقهم دون سؤال ودون حساب.. والكلام هنا عن النفوس وليس الأجساد فالأجساد هلكت غرقا أو أكلها التماسيح.

﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ (نوح: الآية ٢٥)

النار أعقبت الغرق مباشرة.. فما فعله قوم نوح برسولهم على مدى ألف سنة إلا خمسين عاما هو عمر هذا النبى قضاها فى جدال يائس.. هى مسألة ليست فى حاجة إلى إعادة نظر كل هذا ولم تقم الساعة بعد ولم يحدث بعث ولا حشر ولا حساب.

وما نقوله هو كلام يتعلق بعذاب يلحق بالنفوس فور الموت

وانكشاف مستورات الغيب ومعرفة كل نفس بمقامها عند ربها وما ينتظرها من مصير فالأجساد هلكت وأصبحت ترابا.

وعذاب القبور ورد مرة واحدة عن فرعون وعصابته.. يقول ربنا في قرآنه: **﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** (غافر: الآية ٤٦)

وعذاب القبور هنا هو عذاب نفسى برزخى.. فهو عرض مستمر على النفوس الشاخصة في قبورها ارتقابا لمصير مشئوم وكابوس متواصل عن أهوال قادمة حينما تقوم الساعة.

أما الساعة والقيامة والبعث وعودة النفوس إلى التجسد (هذه المرة فى أجساد ملكية لا تفنى ولا تهلك) فهى مرحلة أخرى.. العذاب فيها أشد والنعيم فيها أعظم.. وهو أمر لا يحدث إلا عند نفخة الصور.

يقول القرآن:

﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون.. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ (يس: الآيات ٥١ ـ ٥٣)..

إنها الصحوة الثانية.. وكانت الصحوة الأولى هى خروج النفس من البدن لحظة الموت وماجرى فيها من مفاجآت.. أما هذه المرة فهى قيام وانتفاضة من رقدة القبر فى أعقاب صيحة هائلة.. فإذا بالنفوس قد عادت أجسادا ووقفت ترتجف فى ارتقاب يوم مهول.

﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون.. ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا

الصراط فأنى يبصرون﴾ (يس: الآية ٦٥ ـ ٦٦)

إنه حساب من نوع فريد تتكلم فيه الأيدى والأرجل وتشهد الجوارح على صاحبها بما كانت تفعل ويحاصر المذنب فلا يجد مخرجا..

أما الصراط فهو حدث غيبى آخر واختبار رهيب لا نعلم عنه شيئا، ثم يكون الحشر الأعظم واليوم المشهود الذى يُجمع له الناس **﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾**
(هود: الآية ١٠٣)

حتى الوحوش يقول ربنا أنها تحشر **﴿وإذا الوحوش حشرت﴾** (التكوير: الآية ٥)

والله وحده يعلم كيف.. ولماذا.. وهل عليها حساب.. أم أنه استكمال لذروة الهيبة والجلال فى ذلك الموقف العظيم.

فالعذاب إذن عذابان والعقاب عقابان.. عذاب برزخى غيبى يبدأ من لحظة الموت وخروج النفس من الجسد وعذاب جسدى بعد نفخة الصور والقيامة والبعث وتجسد الأنفس من جديد فى ثوبها الأبدى الذى لا يبلى ولا يموت.. ويكون بعد الحساب ويستمر أبديا.. فالداخلون النار لا يخرجون منها **﴿وما هم بخارجين من النار﴾** (البقرة: الآية ١٦٧)

﴿هذا خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾
(الحج: الآيات ١٩ ـ٢٠ ـ ٢١)

ومن الواضح أنه عذاب أشد من العذاب البرزخى للنفوس

ساعة الموت لأنه أكثر تشخصا ولأنه محسوس جسديا.

والخوض فى أى تفاصيل غيبية عن عالم ما بعد الموت خارجا عن نطاق القرآن هو فضول محذور فلا أحد يعلم عن هذا العالم المحجوب شيئا.

وأكثر الأحاديث التى تتكلم فى هذه الأشياء هى إسرائيليات وأحاديث موضوعة أو ضعيفة السند.

والمتفلسفون الذين يتساءلون.. كيف يعاقب الله عبيده على ذنوب محدودة فى الزمن بعقاب لا محدود فى الأبد.. ألا ينافى ذلك الرحمة الإلهية.. نقول لهم إن الذنوب مع الإصرار لا تعود ذنوبا محدودة بل تصبح ذنوبا متأصلة ملازمة لصاحبها لا ينفك عنها.

يقول القرآن عن المجرمين الذين سألوا الله أن يردهم إلى الدنيا ليعملوا صالحا

يقول ربنا **﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾** (الأنعام: الآية ٢٨)

وهذا علم إلهى بهذا الطراز من النفوس.. فهم أهل النار الذين هم أهلها.. وهم الجبارون فى الدنيا الذين كانوا يقتلون الأبرياء بالجملة والذين كانوا يقدمون خصومهم للسجون والمحارق وكانوا من أهل الإصرار حتى لحظة موتهم.

يقول ربنا عن الجبارين من أصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم أحياء: **﴿قتل أصحاب الأخدود.. النار ذات الوقود.. إذ هم عليها قعود.. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود.. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.. الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء**

شهيد.. إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ (البروج: الآيات ٣ ـ ١٠)

والمعنى أن رحمة الله ومغفرته كانت ستلحق بهم لو أنهم تابوا فى آخر لحظة قبل موتهم.

وباب التوبة مفتوح للجميع حتى ساعة الحشرجة.

ويستثنى الله من العذاب الذين تابوا وأصلحوا وبينوا أى بينوا برجوعهم وبأعمالهم فيقول:

﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ (البقرة: الآية ١٦٠)

والمعنى أن الله فتح باب رحمته ومغفرته حتى لهؤلاء الجبابرة رغم أفعالهم إلى ساعة الحشرجة.. ولكنهم لم يرجعوا ولم يستغفروا ولم يتوبوا

هؤلاء إذن هم أهل النار الذين هم أهلها.. فأى غرابة فى أن تعود النفوس النارية إلى النار.. وإبليس من الجن وهو مثلهم مخلوق من نار السموم والنار مكانه فى النهاية بحكم طبيعته.. وكل النفوس الإبليسية سوف تعود فى النهاية إلى مستقرها فى جهنم.. وليس فى هذا ما ينافي العدل بل هو منتهى العدل.. أن تنتهى كل نفس إلى مكانها.. وأن تعود النار إلى النار.

ولو تأمل الناس فى مصيرهم وفى حياتهم لآمن الكل، ولو تأملوا فى دنياهم ومباهجها الفانية ولذاتها المحدودة والموت والأمراض والمعاطب والأوجاع التى تحف بها لما غرقوا فيها ولما استسلموا لدنياها وتفاهاتها .

ولو تأملوا الموت لما تهالكوا على الحياة.

ولو ذكروا الآخرة لفروا فرارا إلى جناب ربهم.

ولكن لا أحـد يتـوقف ليـفكر.. الكل يـهرول فـى عجـلة ليلحق بشىء وهو لا يدرى أن ما يجـرى خلفه هو سراب ولا شـىء وأن الدقائق والساعات والأيام تجـرى.. وعمره يجرى.. وآخر المطاف مثواه التراب.. ولا أحد من الذين ذهبوا تحت التراب يعود ليحكى.. ونوافـذ القبور تـطل على العمـاء.. ولا أحد رأى شـيئـا.. ولا أحد يعرف شيئا.. وستار العـماء مسدل أمام الكل.. لا يرى الواحد منا إلا لحظته.

وفرصة كل منا حياته ولا توجد أمامه فرصة أخرى.

والله أعطانا العـقل والبصـيرة وأرسل إلينا الأنبـياء والرسل.. وحذرنا بالكوارث التى تتخطف الناس من حولنا كل لحظة.. ورأينا السلطان لا يدوم ورأينا النعيم يزول ورأينا الزهور تذبل والشمس تنكسف والأرض تـتـزلزل.. والمـوت يطارد كـل حى.. ورأينا أنه لا بقاء لشىء.. وأحاطت بنا النذر من كل جانب فلم يعد هناك عذر لأحد.

لكن البلاء ثقـيل والحجاب كثيف والأبصـار كليلة وصدق الله العظيم فيما يقوله عن الأغلبية من المنافقين:

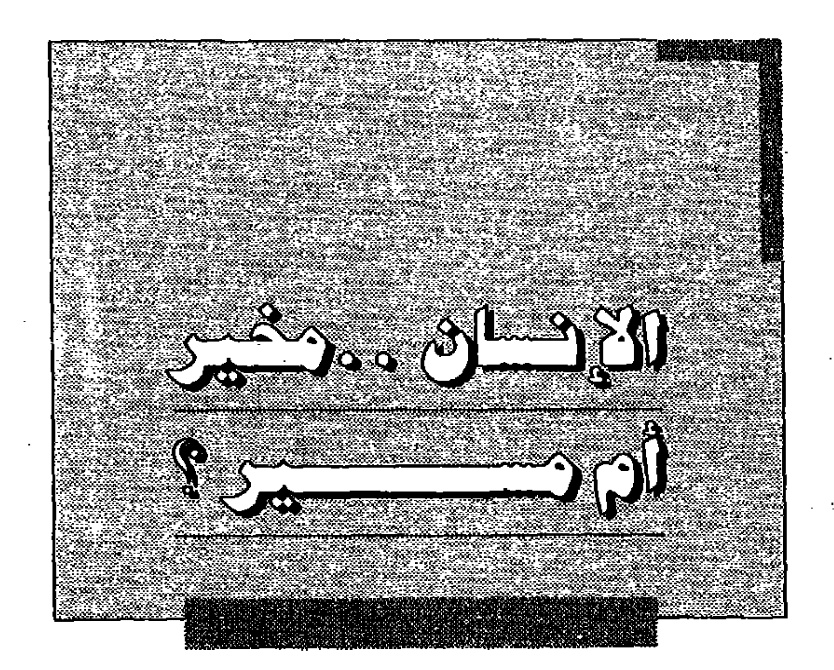
﴿ إنا جـعلنـا فى أعناقـهم أغـلالا فـهـى إلى الأذقـان فـهم مـقـمـحون وجـعلنـا من بين أيديهم سـدا ومن خلفـهم سـدا فـأغشـيناهم فهم لا يبـصـرون وسواء عليـهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (يس : الآيات ٨ ـ ١٠)

إن الله لا يريد هذه الكثرة المنافقة فهى الكثرة التى سبق عليها القول بالطرد من رحمـته ولذلك جعل في أعناقهـا الأغلال وأسدل على أبصارها غشاوة.

ونسأل الله اللطف



ماذا وراء
بوابة الموت
٣



الإنسان .. مخير
أم مسير؟

التساؤل عن حرية الإنسان تساؤل لاينتهى .
ومــازلت أجــد من يســتـوقــفنى فى الـطريق ويسألنى.. هل الإنسان مخير أم مسير ؟
والذين يـقـرأون أكــثــر تســاؤلا من الــذين لا يقـرأون .

والقضيـة أزلية ولا ينتهى الكلام فيها ولا ينتـهى الفضول إلى كشف أسرارها لأنها مرتبطة بحقيقة الإنسان ولغز القدر .

وعمدة الحكم فى نظرى هو مايشعر به الإنسان فى أعماقه .

فتلك الشهادة التى تأتى من الأعماق هى برهان لا يعدله برهان وحجة لاتقف أمامها حجة .

والإنسان يشعر بالفعل في أعماقه أنه يختار فى كل لحظة بين عدة بدائل وأنــه ينتقى ويرجح ويفـاضل ويوازن ويتخـير .. وهو يحاسب نفـسه ويحـاسب الآخرين .. ويفـرح إذا أصاب ويندم إذا أخطأ .. وكلها شواهد على أننا نتصـرف انطلاقا من بداهة مؤكدة بأننا أحرار مسئولون .

ونحن نرى يد السجان تمـتد إلى سجينه فيضطهـده فى لقمته ويضربه ويعذبه ويعلقه من قدميه ويقهره على ما لم يرتكب ولكن هل نراه يستطيع مهما اسـتخدم من وسائل الإرهاب أن يجعل هذا السجين يحبه من قلبه قهرا ؟

لا ..

هنا تقف كل وسائل الإكـراه عاجزة وسوف يظل هذا السـجين حتى المـوت حرا فيما يحب ويـكره .. حرا فيما ينـوى ويضمر .. لايستطيع أحد أن يقتحم عليه غرفة ضميره .

حتى الشيطان لا يستطيع أن يـدخل قلبك إلا إذا فتحت له الباب وصـادف إغـراؤه هوى قلبك ولكنه لن يـسـتـطيع أن يحـملك على ماتكره مهما بلغت وسائله .

وذلك شاهد آخـر على أن الله أعتق القلب ، واعتق الضمـير من كل وسائل الضـغط والإكراه .

الاختـيار إذن حقـيقة .. وحـرية القلب حقـيقة .. وحـرية النية حقيقة .

والسؤال هو عن مدى هذا الاختيار وحدوده ؟

وكيف نزداد حرية ؟

ومن هو أكثرنا حرية ؟

ثم كيف تكون هناك حرية مع مشـيئة الرب ، وكيف تتفق هذه الثنائية مع عقيدتنا فى التوحيد ؟

تلك هى علامات الاستفهام .

●●●

وبرغم قهر الظروف وكثرة الضوابط والموانع التى تحد حرية الإنسـان هنا وهناك . فـإن الإنسـان تبقى له مسـاحة يتحرك فـيها ويـختـار .. وتتسع هذه المساحة كلما اتسع علمه .

وقد أجاب الغزالى عن هذا التساؤل الأزلى بكلمات فقال :

« إن الإنسان مـخير فيـما يعلم ، مسـير فيـما لايعلم .. أى أنه يزداد حرية كلما ازداد علما» .

وقد رأينا مصـداق هذا الكلام فى حياتنا العصـرية ، وشاهدنا

الإنسان الذى تزود بعلوم البخار والكهرباء ، والذرة يتجول فى الفضاء بالطائرات ، والأقمار ويهزم الحر والبرد ويسخر قوانين البيئة ورأينا مساحة حريته تزداد ومجال تأثيره يتضاعف .

وقرأنا فى القرآن عن الذى عنده علم من الكتاب ، وكيف نقل عرش بلقيس فى طرف عين .

وقرأنا كيف عرج محمد عليه الصلاة والسلام بمدد من الله الى السموات ، وكيف جاوز سدرة المنتهى وبلغ مقام قاب قوسين أو أدنى من ربه وذلك هو مجال الحرية الذى يزداد كلما ازداد علم صاحبه والذى يبلغ أعلى المقامات بالعلم الربانى اللدنى ، وبالمدد الإلهى الإحسانى .

فالحرية حقيقة .

والاختيار حقيقة .

والناس متفاوتون فى هذه الحرية بتفاوت علمهم ، وتفاوت مقاماتهم قربا وبعدا من الله ، لأن هذه الحرية لا تأتى إلا بالله ومن الله .

فالعلم منه والسلطان منه ، والنفخة التى نقلتنا من جمادية الطين إلى إنسانية الإنسان هى نفخته الربانية ، والتطلع إلى الحرية فطرة ضمن الفطر التى فطرها الله فينا .

وكل إنسان مفطور على اختيار الأحسن من وجهة نظره . فأما الواحد من عوام الناس فيختار نفسه ومصلحته ، وشهوته لأنه يرى بنظره القريب أن نفسه هى الأحسن بين جميع الاختيارات .

وأما العارف بالله فهو لايختار إلا الله لأنه يرى بنظره البعيد أن الله هو الأحسن بين جميع الاختيارات ، وهو باختياره لربه يخرج عن نفسه وعن اختياراتها ، ويسلم إرادته لاختيارات الله له وذلك هو منهج الطاعة .

وهو بخروجه من نفسه يخرج من المخالفة إلى الموافقة ، ومن الثنائية إلى التوحيد ، ومن المعاندة إلى الانسياب مع الله فى كافة أحواله وتقلباته .

فإذا وقع فى المعصية فإنه لايصح له أن يقول إن الله قدرها عليه : لأن الله لايختار لنا إلا شريعته ، ولا يحب لنا إلا طاعته ، وهو العارف صاحب الدعوى الذى ادعى أنه خرج من إرادته إلى إرادة ربه .. فهو إن عصى فإن معصيته تشهد على كذب دعواه وأنه مازال عند نفسه لم يبرح .

بل إن العارف الحق بخروجه من نفسه يخرج من منطقة الاختيار كلها ويدخل منطقة الإسلام .. الإسلام لله وللمشيئة الإلهية .. فهو يجتهد فى عمله لأن الله أحب له الاجتهاد ولكنه لايحزن لخسارة ولا يفرح لنجاح ولا يأسى على فشل ، لأنه فوض النتائج إلى الله وارتضى أحكامه بلا جدل

وبخروجه من منطقة الاختيار يخرج أيضا من منطقة المساءلة وترفع عنه المحاسبة فيكون ممن يوفى لهم أجرهم بغير حساب وتلك هى سنة الفرقة الناجية .. خروج من اختيار النفس إلى اختيار الرب .. وتبرؤ من الحول والطول .. وإسقاط للتدبير .

يقول الصوفى النفرى إلهاما عن ربه :

« يا عبدى ألْقِ الاختيار ، ألْقِ المساءلة البتة » .

فأهل التفويض والتوكل هم أهل الجنة بالتزكية ، لأنهم أسقطوا اختيارهم وعاشوا وفق الإرادة الإلهية .

أما أهل الاختيار فهم واقفون عند نفوسهم يتخيرون بين حظوظهم ، وقد وكلوا أمرهم إلى عقولهم التى تخطىء وتصيب ..

فوضعوا أنفسهم مع أهل المساءلة فمن يختر يسأل .

ومن أسقط الاختيار وأسقط التدبير لايعود هناك مجال لمساءلته ، فمثله لاتقع فى حقه معصية ، لأنه أسقط مشيئته ضمن ما أسقط من اختيارات .

وشاهد إسقاط التدبير فى حق العارف هو كماله ، فلا يكون مع الله إلا الكُمّل .. ولايصح الادعاء بأنك مع الله وشواهد أعمالك تدل على أنك مع هواك وشهواتك ، فتلك تكون حجة الله عليك بأنك كذاب .

ولهذا لايترك الله المؤمنين العارفين الذين يدعون أنهم من أهله وخاصته ، دون أن يبتليهم ويفتنهم فتلك دعوى عريضة لايصح أن تفوت دون امتحان .

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (العنكبوت : ٢، ٣)

والعجيب أن الملحدين وأهل الفكر المادى يقولون بالجبر والحتمية ، ثم نرى جميع تصرفاتهم أبعد ماتكون عن هذا الاعتقاد وكان المفروض لو كانوا صادقين فى دعواهم بعدم جدوى الحرية الفردية ، أن يسلموا هذه الحرية لربهم المزعوم (المادية الجدلية) ولكن مايحدث دائما هو العكس ، فنرى تاريخهم تاريخا دمويا لجبابرة الحكم الفردى .. ستالين .. لينين .. منجستو .. وما منهم إلا مُدَّعٍ يتصور أنه يصنع التاريخ .. وينسى الواحد منهم أنه قال منذ لحظات أن المادية التاريخية هى التى صنعت له وعيه وعقله وموقفه .

فإذا كانت المادية التاريخية هى التى أفرزت الفن والفكر

والدين والوعى فكيف بك يا صاحبى تعود فتدعى لنفسك أنك تصنع التاريخ وأنت أحد مصنوعات هذا التاريخ إلا أن تكون قد عدت فناقضت نفسك ، وتصورت لإرادتك علوا على التاريخ المادى بما يشفع لها أن تعود فتصنع التاريخ من جديد .

وإذا كان للإرادة الإنسانية علو على التاريخ فذلك هو سبق الفكر على المادة الذى تنكرونه فى (أ - ب) فلسفاتكم .

فها أنتم قد تصورتم أنكم وضعتم الهرم على قاعدته ، ثم عدتم فقلبتموه على سنامه .

وهؤلاء هم أهل الضلال البعيد .

أما الوجوديون والعبثيون من أهل الحياة مع الهوى واللحظة فهؤلاء يقولون إنهم اختاروا نفوسهم ، فالحياة الحقة عندهم هى أن تكون نفسك .. لاتعبأ بعرف أو تقليد أو دين أو أخلاق ، وإنما تعيش لحظتك كما تحب وتهوى ، فأنت لاتملك غير لحظتك واللحظة التى تمضى لاتعود . والحق أن كلا منهم قد اختار حيوانه ، وأطاع غريزته وأسلم لنزوته واستلهم فكرته .. فهو الآخر عبد وإن تصور أنه حر .. عبد لآلهة كثيرة تتجاذبه وتتقاسمه .. ثم أنه هو وآلهته عبيد لله دون أن يدرى .. فالكل منه وإليه .

﴿ قل كل من عند الله ﴾

والكون بنواميسه وما فيه من جمال وفن وفكر ، وحب وقوانين مادية جدلية ونظريات عبثية ووجودية وأفكار فوضوية.. هو كون مخلوق لله .. وهو مظهر من مظاهر التجلى الإلهى والمشيئة الإلهية .. فلا شىء فى الكون يخرج عن مشيئة الله ، وأن خرجت بعض الأشياء عن رضاه .

والكل مسلم لله طوعاً أو كرهاً .

وإنما كل الفارق هو فارق بين عارف وجاهل .

فالعارف أدرك الحقيقة فأسلم باختياره وخرج عن نفسه طوعاً وحبا وكرامة وانضوى تحت المشيئة بكليته راضياً سعيداً.

والجاهل تصور أنه ليس عبداً لأحد .. وأنه لا مشيئة لأحد عليه وأنه اختار نفسه (وهو ما اختار إلاحيوانه) .

والحق أنه هو الآخر عبد خاضع دون أن يدرى .. وإنما هو خاضع بالكرباج ، منساق بالعصا يتصور أنه يسير إلى الأمام ، وهو يدور فى ساقية وعلى عينيه عصابة كالثور يكدح لبطنه وشهواته .

وقد أخرجه جهله وعناده من القرب إلى البعد .

فلأهل البعد النار ولأهل القرب الجنة .

وإنما تكون الجنة مكافأة لعارف عرف .

ولا حرية إلا لعارف .

ولا حرية إلا بالله ومن الله .

ولا تأتى الحرية إلا خلعة من الله .

إنما تأتى حرية العارف من أنه اختار ربه فخلع الله عليه حريته وصفاته ، فأصبح العبد الربانى الذى يرى ببصر الله ويسمع . بسمع الله ويحيا بحياته : وتلك هى الحرية القصوى التى يحرك بها العارف الجبال ، والتى أسرى بها محمد عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى وعرج إلى السماوات وجاوز المنتهى .. والتى أحيا بها عيسى الميت .

أما التحرر بمعنى التمرد على الشرائع ، وعصيان الأمر الإلهى واستباحة الأعراف الخلقية فهو مثل السباحة ضد التيار ، نهايتها الإنهاك والتعب ثم الغرق .

وكيف يكون الإضـراب عن الطعام والشـراب والتنفس حرية ، وهل تكون إلا حرية الموت أو حرية القـضاء علي الحرية . وكيف يكون اتبـاع الشـهوات حـرية ، والشـهـوات ذاتها عـبودية وقـيد ؟ وكيف تزداد حرية بدخولك فى جاكتة جبس وخضوعك لحيوانك؟ إنما التحرر لا يكون إلا خروجا مـن النفس وضروراتها واستعلاء علي هواها وشـهواتها .

والعارف الذى خرج من نفسه واخـتار ربه هو بالمعني العميق قد اختـار حقيقـته ، فهو ما خـرج إلا عن نفسه الحيـوانية الأمارة وتلك نفس دونية طينية حكمها حكم الجسد .

أما حقيقة كل إنسان فهى نفسه العلوية الملكوتية التى هى على مثال النفخة الربانية التي أودعها الله في الجسـم .

وهي المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم في المبدأ الأول .

والعارف باخـتياره لربه قـد اختار نـفسه الحـقيقـية « النفس المثال التي خلقها الله في أحسن تقويم » .

﴿ لقـد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسـفل سافلين ﴾ (التين : الأيتان ٤ ـ ٥)

ولقـد ردنا الله إلى أسـفل سـافلين حـينمـات أودع هذه النفس العلية في الحشـوة الطينية ، وابتلاها بالشهوات والحـيوانية وتلك هي حيـاتنا الدون التي نحيـاها ، ولكن العارف بخـروجه من هذه النفس الحيوانية يسترد شفافيـته الأولى ، ويعيش نفسه الحقيقية ويكتشف نسبه الروحانى باعتباره نفخة من الله ، وهو بهذا يختار أصله وحقيقته ، يختار ربه .

إنه إذن أعلى درجات الاختيـار وإن كان فى الظاهر خروجا من الاختيار وإسقاطا للتدبير .

وحرية العبد بهذه الصورة لا تتنافى مع التوحيد فما أخذ العبد حريته إلا من الله ، وما جاءت حريته فى أن يشاء إلا بمشيئة إلهية ودستور إلهى .. فقد أرادنا الله أحرارا .. ولم نغتصب نحن هذه الحرية من الله اختلاساً .

﴿ وماتشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ (الإنسان : الآية ٣٠)

ثم إن الله حينما قضى علينا قضاءه المسجل فى كتابه ، فإنما قضى على كل إنسان قضاء من جنس قلبه ، ومن جنس ضميره ، ومن جنس نيته .. من أراد حرث الدنيا مهد له فيها ، ومن أراد حرث الآخرة هداه إليها .

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ﴾ (الشورى : الآية ٢٠)

﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم﴾ (الأنفال : الآية ٧٠)

﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ (الليل: الآيات ٥ ـ ١٠)

﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾(البقرة :الآية ١٠)

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ (محمد : الآية ١٧)

تأتى التيسيرات دائما من جنس النية .. فلا ثنائية ولا تضاد بين اختيار الرب واختيار العبد .. وإنما الإرادتان تلتقيان فى خط واحد وإرادة واحدة .. الله يسيرك إلى عين اختيارك ويختار لك من جنس نيتك لا تناقض ولا ضدية .

ومراد الله بهذا أن يُخرج المكتوم فى القلب .

﴿ والله مُخرج ماكنتم تكتمون ﴾ (البقرة : الآية ٧٢)

ليتم الغرض من الدنيا كدار ابتلاء وامتحان .

ويظل الله هو الحاكم الأحد بلا شبهة شريك .. فلا حرية إلا به، ولا تيسير ولا تمكين إلا بإذنه .

أما خارجاً عن الله .. فلا حرية ولا حياة ولا قدرة .

فما سوى الله نار ..

وما سوى الله ظلمة ..

وما سوى الله قيد ..

وسبحان الذى أسرى بعبده ..

فلا سريان لنا إلا على جناحه .. ولا نفاذ من أقطار السماوات والأرض إلا بسلطانه ..

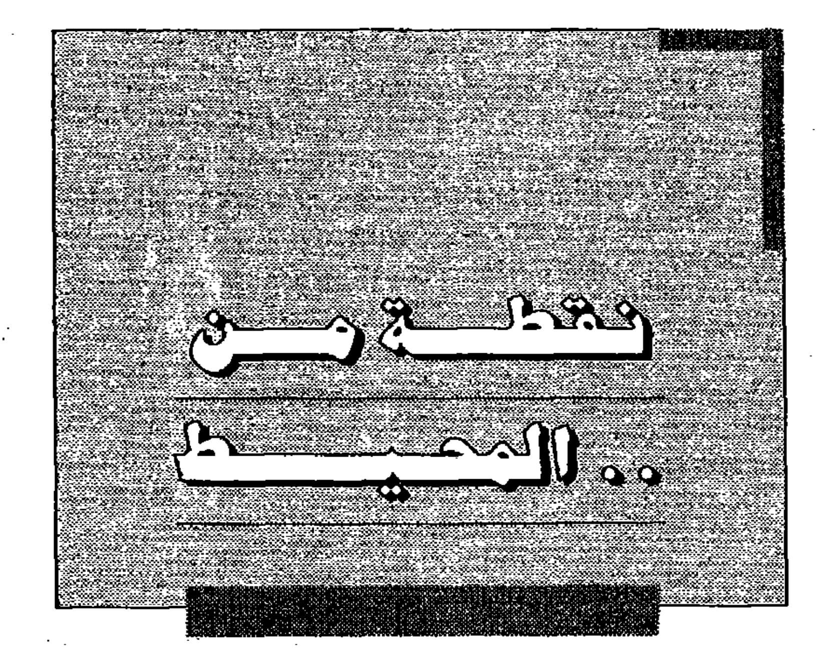
ولا حرية إلا به .

ولا نور إلا بنوره ..

وهذا الاعتراف هو عين الإسلام ..

وهو عين شهادة أن لا إله إلا الله .. أى لا حاكمية ولا سلطان إلا له .. تقدست أعتابه عن الند والضد ، والصاحبة والولد والشريك والشبيه .


ماذا وراء
بوابة الموت
٤


نقطة من
المحيط ..

في ساعات الصفاء حينما تنقشع الغواشي عن القلب وتتجلى البصيرة ، وأرى كل شيء أمامي بوضوح ، تبدو لي الدنيا بحجمها الحقيقي وبقيمتها الحقيقية فإذا هي مجرد رسم كروكي أو ديكور مؤقت من ورق الكرتون أو بروفة توزع فيها الأدوار لاختيار قدرات الممثلين ، أو مجرد ضرب مثال لتقريب معنى بعيد ومجرد وهي في جميع الأحوال مجرد عبور ومزار ومنظر من شباك في قطار .

وهي الغربة وليست الوطن .

وهي السفر وليست المقر .

أعجب تماما وأدهش من ناس يجمعون ويكنزون ويبنون ويرفعون البناء وينفقون على أبهة السكن ورفاهية المقام وكأنما هو مقام أبدي وأقول لنفسي أنسوا أنهم في مرور ؟ ألم يذكر أحدهم أنه حمل نعش أبيه وغدا يحمل ابنه نعشه إلى حفرة يستوي فيها الكل ؟ وهل يحتاج المسافر لأكثر من سرير سفري وهل يحتاج الجوال لأكثر من خيمة متنقلة ؟

ولم هذه الأبهة الفارغة ؟ ولمن ؟ ولمن الترف ونحن عنه راحلون؟ هل نحن أغبياء إلى هذه الدرجة ؟ أم هي غواشي الغرور والغفلة والطمع وعمى الشهوات وسعار الرغبات وسباق الأوهام ؟ وكل ما نفوز به في هذه الدنيا وهم ، وكل ما نمسك به ينفلت مع الريح .

والذين يتقاتلون ليسبق الواحد منهم الآخر أكثر عمى فالشارع سد عند نهايته وكل العربات تتحطم ويستوى فيها السابق باللاحق ، ولا يكسب أحد منهم إلا وزر قتل أخيه . بل إن أكثر الناس أحمالا وأوزارا فى هذه الدنيا هم الأكثر كنوزا والأكثر ثراء فكم ظلموا أنفسهم ليجمعوا وكم ظلموا غيرهم ليرتفعوا على أكتافهم .

ولعلنا سمعنا مثل هذا الكلام ونحن نلهث متسابقين على الطريق فهو كلام قديم قدم التاريخ رددته جميع الأسفار وقاله جميع الحكماء ولكننا لم نلق له بالا ولم يتجاوز شحمة الأذن .

ومازلنا نسمع ولا نسمع برغم تطور أدوات الاستماع وكثرة الميكروفونات ومكبرات الصوت ، ولقطات الهمس الالكترونية من فوق الفضاء ومن تحت الثرى .

ومازلنا نزداد صمما عن إدراك هذه الحقيقة البسيطة الواضحة وكأنها طلسم مطلسم ولغز عصى على الأفهام .

هل نحن مخدرون ؟

أم هناك ما هو أقوى أثرا وأكثر شراسة من الخمور والمخدرات ، هى مادية العصر التى طبعت الناس بذلك الشعار المسكر ؟ شعار غامر واكسب وانهب واهرب وسارع إلى اللذة قبل أن تفوت وعش لحظتك بملئها طولا وعرضا ولا تفكر ماذا بعد فقد لا يكون هناك بعد .

نعم تلك هى الخدعة التى يستدرج إليها الكل أنه لا شىء بعد وهى ليست خدعة بل هى روح الفلسفة المادية ويقينها أنه لا شىء سوى ما نرى ونسمع ونذوق ونلمس من ماديات ، وأنه ليس وراء هذه الدنيا شىء ونفوسنا الأمارة استراحت إلى هذه

الفلسفة لأنها تشبع لها رغائبها وتحقق لها مشتهياتها ، والحيوان في داخلنا اختارها لأنها تشبع غرائزه .

ألم يدع الصوفي الكامل أبو الحسن الشاذلي ربه متوسلا أن يأخذه من هذه النفس فقال : « رب خذني إليك مني وارزقني الفناء عني ، ولا تجعلني مفتونا بنفسي محجوبا بحسي» وتلك النفس هي الفتنة والحجاب وهي التي أفرزت هذه الحضارة المادية وروجتها.

ألم يسأل داود ربه : « يارب كيف أصل إليك . فقال له ربه أترك نفسك وتعال » . أن يترك هذه النفس لأنها العقبة : ﴿ **فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة** ﴾

(البلد : الآيات ١١ ـ ١٣)

لا انفكاك من هذه العقبة إلا بالانفكاك من طمعك . فتفك الرقبة وتطعم المسكين وتؤثر غيرك على نفسك ، ولذلك لم يطلب الإسلام من المسلم نبذ الدنيا وإنما طلب منه قمع النفس وكبحها وشكمها لأن النفس هي الأصل والدنيا مجرد أداة لتلك النفس لتختال وتزهو وتتلذذ وتستمتع .

إن النفس هي الموضوع وهي ميدان المعركة ومحل الابتلاء والدنيا ورقة امتحانها ومطلوب الدين هو الارتقاء بهذه النفس والارتفاع بها من شهوات البطن والفرج ومن شهوات الجمع والاكتناز ، ومن حمى الاستعراض والكبر والتفاخر ليكون لها معشوق أرقى هو القيم والكمالات ، ومعبود واحد هو جامع هذه الكمالات كلها .

وإنما تدور المعركة في داخل النفس وفي شارع الدنيا حيث يتفاضل الناس بمواقفهم من الغوايات والمغريات وما تعرض

عليهم شياطينهم من خواطر السوء ومن فرص اللذة كل لحظة .

ولم يطلب الإسلام من المسلم أن ينبذ الدنيا ، بل طلب منه أن يخوضها مسلحا بهذه المعرفة فالدنيا هى مزرعته وهى مجلة أفعاله وصحيفة أعماله .

وقدم له فلسفة أخرى فى مواجهة الفلسفة المادية قدم له فلسفة استمرار وبقاء فهو لن يموت ويمضى إلى عدم بل إلى حياة أخرى سوف تتعدد فصولا وتمضى به كدحا وجهادا حتى يلقى ربه : ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه**﴾ (الانشقاق : الآية ٦) .

الحضارة المادية لم تقدم للإنسان إلا الموت وحياة تمضى سدى وتنتهى عبثا أما الإسلام فقدم للإنسان الخلود وحياة تمضى لحكمة وتنتقل من طور إلى طور وفقا لنواميس ثابتة من العدل الإلهى حيث لا يذهب أى عمل سدى ولو كان مثقال ذرة من خير أو شر .. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

واليوم تصل الحضارة المادية إلى ذروة من القوة والعلم وتكتمل لها أدوات الفعل والتأثير من إذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح وكتب ومجلات وهى سواء كانت أمريكية أو سوفيتية فهى لا تفتأ تغتال العقل والروح وتتحالف على الإنسان بخيلها ورجلها ولكنها برغم كل شىء ضعيفة متهافتة واهية لأنها تغتال نفسها ضمن ما تغتال وتأكل كيانها ، وسوف تقتتل مع بعضها البعض وتتحارب بالمخلب والناب وبالقنابل الذرية والقذائف النووية فالطمع والجشع حياتها وموتها .

وعلى رقعة صغيرة من الأرض يقف الإسلام كمنارة فى بحر

لجى مظلم متلاطم الموج يعج بالبوارج والغواصات وحاملات الصواريخ وحاملات الرؤوس النووية .

وما أكثر المسلمين ممن هم فى البطاقة مسلمون ولكنهم فى الحقيقة ماديون اغتالتهم الحضارة المادية بأفكارها وسكنتهم حتى الأحشاء والنخاع فهم يقتل بعضهم البعض ويعيشون لليوم واللحظة ويجمعون ويكنزون ويتفاخرون ولا يرون من الغد أبعد من لذة ساعة ، ويتكلمون بلغة سوفيتية أو لغة أمريكية ولا يعرفون لهم هوية .

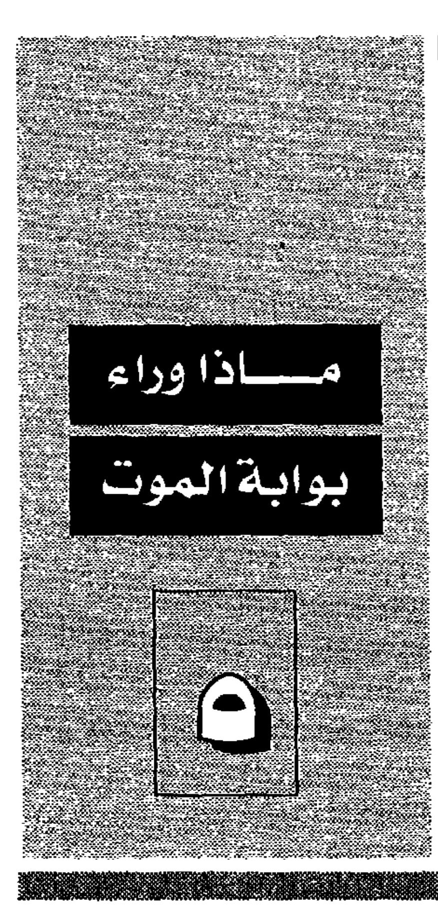
وقد نجد من يصلى منهم إلى القبلة خمس مرات فى اليوم ولكن حقيقة قبلته هى فاترينة البضائع الاستهلاكية .

ولا يبقى بعد ذلك إلا قليل أو أقل القليل ممن عرف ربه . ولو بقى مؤمن واحد مرابط على الحق فى الستة آلاف مليون فهو وحده أمة ترجحهم جميعا عند الله يوم تنكشف الحقائق وينهدم مسرح العرائس ويتمزق ديكور الخيش والخرق الملونة وتنهار علب الكرتون التى ظنناها ناطحات سحاب وتنتهى الدنيا .

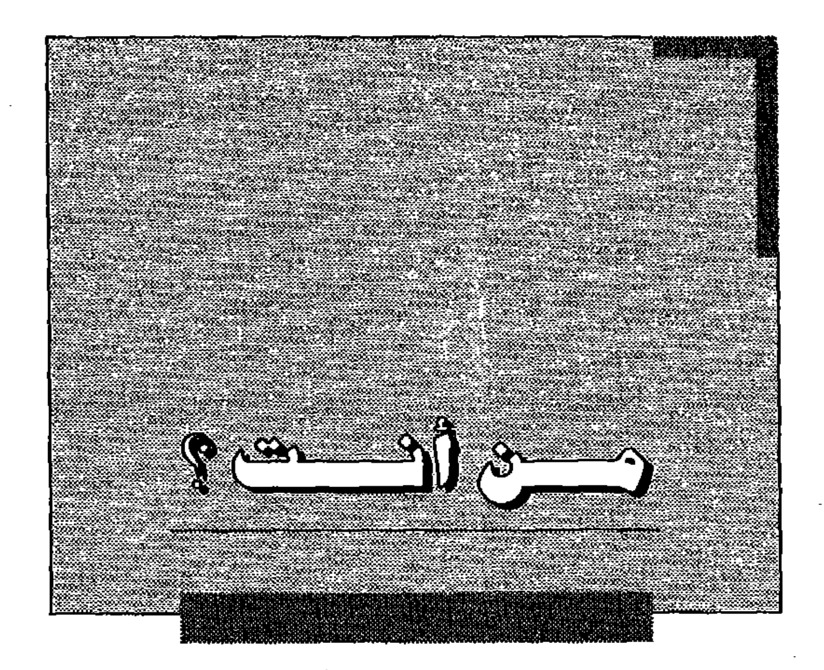
وحينئذ وعندما تهتك الأستار وتقام الموازين سوف نعرف ما الدنيا وماذا تساوى وماذا يساوى كل الزمن حينما نضع أقدامنا فى الأبد .

وحينئذ سوف نتذكر الدنيا كما نتذكر رسما كروكيا أو مسرح خيال الظل أو نموذج مثال مصنوع من الصلصال لتقريب معنى بعيد بعيد ومجرد .

وسوف نعلم أنها ما كانت سوى النقطة التى فيها كل أملاح البحر المحيط ولكنها لم تكن أبدا البحر المحيط .



مـــاذا وراء
بوابة الموت
٥



مـن أنـت ؟

من أنت .. حينما تتردد لحظة بين الخير والشر ..
من تكون ..؟!
أتكون الإنسان الخير أم ، الشرير أم ما بينهما..؟!
أم تكون مجرد احتمال للفعل الذى لم يحدث بعد..؟!

إن النفس لا تظهر منزلتها ولا تبدو حقيقتها إلا لحظة أن تستقر على اختيار ، وتمضى فيه باقتناع وعمد وإصرار ، وتتمادى فيه وتخلد إليه وتستريح وتجد ذاتها .

ولهذا لا تؤخذ على الإنسان أفعال الطفولة ، أو أفعال المراهقة ولا ما يفعله الإنسان عن مرض أو عن جنون أو عن إكراه .. وإنما تبدأ النفس تكون محل محاسبة منذ رشدها ، لأن بلوغ الرشد يبدأ معه ظهور المرتكزات والمحاور التى ستنمو عليها الشخصية الثابتة .

واختيارات الإنسان فى خواتيم حياته هى أكثر ما يدل عليه ، لأنه مع بلوغ الإنسان مرحلة الخواتيم يكون قد تم ترشح وتبلور جميع عناصر شخصيته ، وتكون قد انتهت ذبذبتها إلى استقرار وتكون بوصلة الإرادة قد أشارت إلى الطابع السائد لهذه الشخصية .

ولهذا يقول الصوفيون : «العبرة بالخواتيم» .. وما يموت عليه العبد من أحوال ، وأعمال وما يشغله فى أيامه الأخيرة هو

ما سوف يبعث عليه .. تماما كما ينام النائم فيحلم بما استقر فى باله من شواغل لحظة أن رقد لينام .

ولهذا أيضا لا تؤخذ النفس بما فعلته وندمت عليه ورجعت ، ولا تؤخذ بما تورطت فيه ثم أنكرته واستنكرته ، فإن الرجوع عن الفعل ينفى عن الفعل أصالته وجوهريته ويدرجه مع العوارض العارضة التى لاثبات لها .

وقد أعطى الله الإنسان مساحة كبيرة هائلة من المنازل والمراتب .. يختار منها علوا وسفلا ما يشاء .. أعطاه معراجا عجيبا يتحرك فيه صاعدا هابطا بلا حدود .. ففى الطرف الصاعد من هذا المعراج تلطف وترق الطبائع ، وتصفو المشارب والأخلاق حتى تضاهى الأخلاق الإلهية فى طرفها الأعلى (وذلك هو الجانب الروحى من تكوينه) وفى الطرف الهابط تكثف وتغلظ الرغبات والشهوات ، وتتدنى الغرائز حتى تضاهى الحيوان فى بهيميته ، ثم الجماد (فى جموده وآليته وقصوره الذاتى) .. ثم الشيطان (فى ظلمته وسلبيته) وذلك هو الجانب الجسدى الطينى من التكوين الإنسانى .

وبين معراج الروح صعودا ومنازل الجسد والطين هبوطا ، تتذبذب النفس منذ ولادتها ، فتتسامى هنا وتتردى هناك بين أفعال السمو وأفعال الانحطاط ، ثم تستقر على شاكلتها وحقيقتها.

﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ (الإسراء : الآية ٨٤)

ومتى يبلغ الإنسان هذه المشاكلة والمضاهاة بين حقيقته وفعله فإنه يستقر ويتمادى ، ويمضى فى اقتناع وإصرار على خيره أو شره حتى يبلغ نهاية أجله .

ومعنى هذا أن النفس الإنسانية أو « الأنا » .. هى شىء غير الجسد .. وهى ليست شيئا معلوما بل هى سر وحقيقة مكنونة لا يجلوها إلا الابتلاء والاختبار بالمغريات .

وما الجسد والروح إلا الكون الفسيح الذى تتحرك فيه تلك النفس علوا ، وهبوطا بحثا عن المنزلة التى تشاكلها وتضاهيها والبرج الذى يناسب سكناها فتسكنه .. فمنا من يسكن برج النار (الشهوات) وهو ما زال في الدنيا ، فلا يبرح هذا البرج حتى الممات ، فتلك هى النفس التى تشاكل النار فى سرها وهى التى سبق عليها القول والعلم بأنها من أهل النار .

وذلك علم سابق عن النفوس لا يتاح إلا لله وحده ، لأنه وحده الذى يعلم السر وأخفى ، فهو بحكم علمه التام المحيط يعلم أن هذه الحقيقة المكنونة فى الغيب التى اسمها فلان ، والتى مازالت سرا مستترا لم يكشفه الابتلاء والاختبار بعد ، والتى لم تولد بعد ولم تنزل فى الأرحام .. يعلم ربنا تبارك وتعالى بعلمه المحكم المحيط أن تلك النفس لن تقر ولن تستريح ولن تختار إلا كل ما هو نارى شهوانى سلبى عدمى .. يعلم عنها ذلك وهى مازالت حقيقة مكنونة لا حيلة لها فى العدم .

وهذا العلم الربانى ليس علم إلزام ولا علم قهر ، بل هو علم حصر وإحاطة ، فالله بهذا العلم لا يجبر نفسا على شر ، ولا ينهى نفسا عن خير ، فهو يعلم حقائق هذه الأنفس على ما هى عليه دون تدخل .

فإذا جاء ميقات الخلق (وجميع الأنفس تطلب من الله أن يخلقها ويرحمها بإيجادها وهى مازالت حقائق سالبة فى عالم الإمكان فى العدم) أعطى الله تلك النفس اليد ، والقدم واللسان

لتـضـر وتنفع وأعطاها ذلك الكون الـفسـيح الذى اسـمـه الروح والجسد لتـمرح فيه صـاعدة هابطة تختار من منازله مـا يشاكلها لتسكن فيه .. فإذا سكنت واستقرت ، وتسجلت أعمالها قبضـها الله إليـه إلى يوم البـعث والحـساب المـعلوم .. حـيث تقـرأ كل نفس كتابها.. وتعلم منزلتها فلا يعود لأحد العذر في أن يحتج بعد ذلك حينما يضعه الله فى مستقر الجنة أو مستقر النار الأبدية .

وقـد أعـذر الله وأنذر الجـميع ، مـن قبل ذلـك بالرسل والكتب والآيات وأقـام عليـهم الحجـة بمـا وهب لهم من عـقل وضـمـيـر وبصيرة، وحواس تميز الضـار من النافع والخبيث من الطيب .

ولهذا حينما تطالب النفوس المجرمة فى النار أن تعطى فرصة أخـرى ، وأن ترد إلى الدنيا لتـعمل الـصـالحـات ، وحينمـا يدعى البعض أن تعذيب تلك النفوس أبديا على ذنوب مؤقتة ارتكبتها فى الزمن المحدود هو أمر ظالم .

حينئذ يجيب ربنا متحدثا عن هؤلاء المجرمين قائلا :

﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾

(الأنعام : الآية ٢٨)

وفى هذا الرد البليغ إشارة إلـى أن إجرام تلك الأنفس لم يكن ذنبـا موقـوتا فى الزمن .. بل إنهم ليـعاودون هذا الجـرم فى كل زمن ومهمـا عاود الله خلقهم .. لأن ذلك الإجرام حقـيقة مكنونة ، وليس عرضا محدودا بالزمـان والمكان .. ولهذا كان عقابه الأبد ، وليس العذاب الموقوت .

ونقول أيضا : إن هناك عـدالة عميقة كامنة فى هذا المـصير .. نارا أبدية أم جنة .. إن كل نفس بينها وبين ذلك المـصير النهائى مشاكلة تامة ، ومضاهاة وائتلاف فى الحقائق .. فالحقائق النارية

تسكن النار والحقائق النورانية تسكن الجنة .. فلا قسوة هناك ولا وحشية ، إنما وضع كل شىء فى مكانه .

والسر الآخر الذى ينكشف لنا أن البيئة لا يمكن أن تصنع من إنسان صالح (نفسه صالحة بالحقيقة) إنسانا مجرما ولا العكس، وأن الكلام على أن مظالم المجتمع جعلت فلانا لصا ، هذا الكلام لا يصدق دينيا ولا واقعيا . فالمجتمع يضع للجريمة إطارها فقط ولكن لا ينشىء جريمة فى إنسان غير مجرم .. بمعنى أن لص هذا الزمان تعطيه امكانات العصر العلمية وسائل الكترونية وأشعة ليزر ليفتح بها الخزائن ، بينما نفس اللص منذ عشرين سنة لم يكن يجد إلا طفاشة .. كما أن قاتل اليوم يمكن أن يستخدم بندقية مزودة بتلسكوب (كما فعل قاتل كنيدى) بينما هو فى أيام قريش لا يجد إلا سيفا ، ثم قبل ذلك بعدة قرون لا يجد إلا عصا، ثم قبل ذلك على أيام قابيل وهابيل لا يجد إلا الحجارة .

إن المجتمع والعصر والظروف تصنع للجريمة شكلها ، ولكنها لا تنشىء مجرما من عدم ، ولا تصنع إنسانا صالحا من نفس لاصلاح فيها .

وبالمثل لا يستطيع الأبوان بحسن تربيتهما أن يقلبا الحقائق فيخلقا من ابنهما المجرم ابنا صالحا ولا العكس .

ونجد فى سورة الكهف حكاية عن غلام مجرم كافر ، أبواه مؤمنان :

﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ (الكهف : الآية ٨٠)

وبعض الأنبياء كانوا من آباء كفرة ، واستجابت أكثر الأقوام لهؤلاء الأنبياء ولم يستجب الآباء .

من الذى يســتطيع أن يقلب حقــائق الأنفس ويغيـرها ؟ لا أحد سوى الله وحده .

والله لا يفعل ذلك إلا إذا طلبت النفـس ذاتها أن تتغيـر وابتهلت من أجل ذلك ، لأنه واثقنا جـمـيعـا على الحـرية التامــة وعلى أنه لا إكراه فى الدين .. وأن من شــاء أن يكفر فليكفـر ، ومن شاء أن يؤمن فليـؤمن .. وأنه لن يقهـر نفســا على غيـر هواها .. وأنه لن يغير من نفس إلا إذا بادرت بالتغيير وطلبت التغير :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ﴾

(الرعد : الآية ١١)

وتلك هى التزكية :

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمتــه مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ (النور . الآية ٢١)

وعلى الإنسان أن يبدأ بتزكية نفسه وتطهيرها :

﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾

(الشمس : الآيتان ٩ : ١٠)

﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ (فاطر : الآية ١٨)

ولا سبيل إلى تطهير النفس وتزكيتها إلا بإتقان العبادة والتزام الطاعات ، وإطالة السجود وفعل الصالحات .

وبحكم رتبة العبودية يصبح الإنسان مستحقا للمدد من ربه .

فيمده الله بنوره ويهيىء له أسباب الخروج من ظلمته .

وذلك هو سلوك الطريق عند الصوفية بـالتخلية (تخلية النفس من الصــفــات المــذمــومــة) ثم التـحلية (تحـليــة القلب بالذكـر والفضائل) والتعلق والتخلق والتحقق .

والتعلق عندهم هو التعلق بالله وترك التـعلق بما سواه والتخلق

هو محاولة التحلى بأسمائه الحسنى ، الرحيم والكريم والودود والرؤوف والحليم والصبور والشكور .. قولا وفعلا .

والتحقق هو أن تصل إلى أقصى درجات الصفاء واللطف والمشاكلة ، فتصبح ربانيا فى طباعك أو تكاد .

ولا سبيل إلى صعود هذا المعراج إلا بالعبادة والطاعة والعمل الصالح ، والتزام المنهج القرآنى والسلوك على قدم محمد العبد الكامل ، والعارف الكامل عليه صلوات الله وسلامه .

والذى يعلق على هذا الكلام فيقول :

قولك عن النفس إنها « السر » هو كلام أغمضت فيه ، وألغزت وحجبت وما كشفت .

أقول له إن نفسا فيها القابلية للحركة على جميع تلك المعارج صعودا ، وهبوطا ، وفيها القابلية أن تكون ربانية أو شيطانية أو حيوانية أو جمادية .

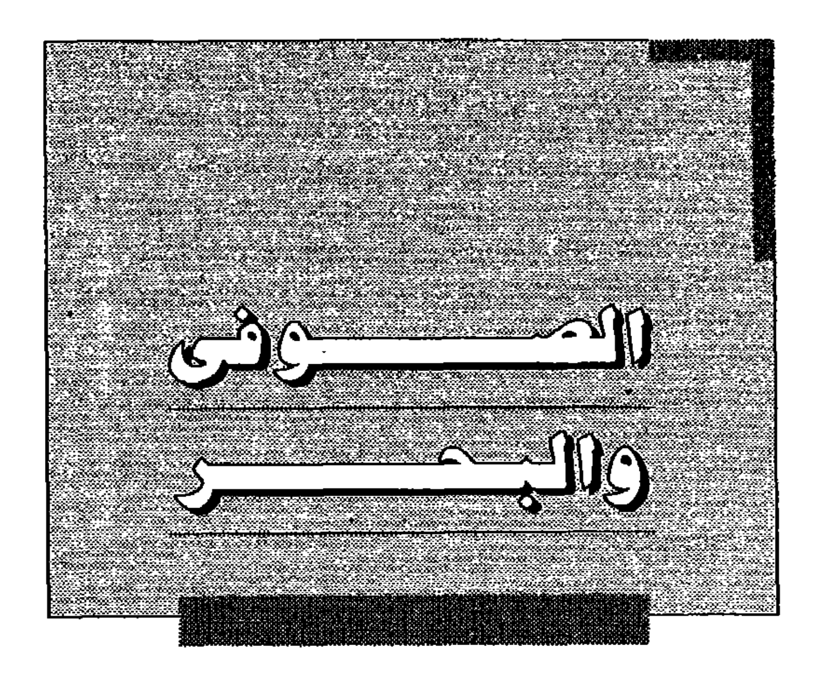
نفس بهذه الامكانات هى « السر الأعظم » ذاته ، ومن ادعى أنه أدرك السر الأعظم ؟!!

إن هى إلا أصابع تشير .

والمشار إليه لا يعلمه إلا الله .

ونحن جميعا لا نعلم .


مــاذا وراء
بوابة الموت
٦


الصـــوفى
والبحـــر

مد الرجل ساقيه فى استرخاء لذيذ، ونظر إلى البحر المديد الأزرق كأنه يشربه ويشرب لونه. وترك روحه ترضع من هذه الشفافية اللؤلؤية والأنوار المتشععة الذائبة فى المياه.

شىء ما فى ذلك البحر كان يبدو لعينيه. وكأنه من وراء العقل ومن وراء الحس.. شىء كالغيب، يسطع خلال المظاهر.

وتذكر كلمات ذلك الصوفى الذى قال إنه اشتاق إلى ربه، وإنه احترق إليه شوقا، وكاد عقله يهلك عجزا عن بلوغه لولا أن نور الله كان يلوح له من وراء أستار الغيب، ومن خلال الجمال المتجلى فى الوجود فيروى ظمأه بين الحين والحين.

وذلك هو الشرب والسكر الذى يحكى عنه الصوفية.

شرب الجمال المتجلى فى الوجود.

ذلك الشرب المغيب الذى يترك الروح نشوانة.. هيمانة.. تهتف: الله.. الله.

وقد أدرك صاحبنا فى جلسته أمام البحر لأول مرة ذلك المعنى البعيد الذى حكى عنه.. الصوفية.. وشعر بذلك الشرب المغيب.. وهتفت روحه النشوانة، وقد أدركت طرفا من تلك الحضرة الإلهية المتجلية فى الأشياء.. هتفت هيمانة سكرانة.. الله.

لقد اتصلت روحه لأول مرة بنبع الحسن، ومصدر الفتنة وسر

الجلال والجمال فى الأشياء.. وباشر تلك الرجفة الكهربائية وأحس بتلك الرعشة الروحية وهو يلامس السر السارى فى الوجود وفى نفسه.

وذلك هو حضور المحبوبة المعشوقة التى كان يسأل عنها المحب الهيمان طوال الوقت، ويبحث عنها ويرتحل إليها وهى طوال الوقت معه دون أن يدرى.. فى سواد عينيه.. وفى حنايا ضلوعه.. وأقرب إليه من حبل الوريد..

ومن عجب أنى أحن إليهمو
وأسأل عنهم من أرى وهمو معى
وترصدهم عينى وهم فى سوادها
ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

فما كان الحسن والجمال والفتنة التى لمح طرفا منها فى الشفاه والخدود والقدود إلا مددا من ذلك الغيب المغيب، ولا كان إلا تجليا لذات الحسن المتفردة.. «الذات الإلهية» التى هى أقرب إليه من نفسه وأقرب إلى عينيه من سوادهما، وأقرب إلى لسانه من نطقه.

إن ليلاه فيه .. وهو يقطع البوادى بحثا عنها. «وذات الحسن المتفرد» التى أفاضت من حسنها البديع على كل شىء.. أقرب إليه من حبل وريده، وأوثق اتصالا به من دمه فى شرايينه.

وحينما يدرك الصوفى ذلك يصيبه برد السلام، ويهدأ فى جوانحه طائر القلب، وتنشر عليه السكينة لواءها، ويصبح صاحب الوجه النورانى، والنفس المطمئنة التى لا تزلزلها الزلازل ولا تحركها النوازل.

شعر صاحبنا بتلك الأنوار وهو جالس أمام البحر، وأمامه

قطف من عنب مثلج.. ورأى كل حبة عنب وكأنها تختزن داخلها نورا.. وحينما ذابت فى فمه بردا وحلاوة شعر كأنما تعطيه سرها وتبوح له بمكنونها.. وكان فى تذوقه لحلاوتها شيء كالعبادة.. وكأنما كان ربه هو الذى يطعمه ويسقيه مباشرة، وبدون وساطة ويناوله من كفه الرحمانية ليأكل ويشرب..

وتذكر قول عميد العشاق الإلهيين ابن الفارض

شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فوصف الشاعر خمرا للكرم من قبل أن يخلق الكرم. وتلك هى خمر السر المودع فى الأشياء من قبل أن تخلق الأشياء تلك هى خمر **﴿فإذا نفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾**.. خمر الأنوار المودعة فى الأشياء. وكل مؤمن مازال يعاود السجود مثل الملائكة كلما استشعر هذه الأنوار.. وكلما باشر سرها وذاق حلاوتها سجدت جوارحه وهتفت نفسه.. الله.. الله..

وشوش له البحر بهذه الكلمات، وكاشفه بتلك الأسرار وهو يهدهده بأمواجه، ويتناثر كحبات الماس على وجهه وساقيه. وبقدر ما كانت صفحة البحر تبدو له هادئة ساكنة مطمئنة.. كان باطن البحر يقول له.. باطنى وسع العالمين.. وسع الحياة والموت.. وسع كل شيء علما.

كان البحر أشبه بالرمز المهموس، والإشارة الدالة والمثل المضروب على القدرة:

﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾
(النور: الآية ٥)

ذلك هو الضوء فى المصباح واللؤلؤة فى الصدفة، والروح فى الإنسـان، والجمـال فى البـحر، وتلك هى النـفخـة التى تدل على النافخ ﴿ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ﴾.

فالـزيت يسرى فـيهـا من الذات المبـاركة التى تضىء بذاتـها بدون حـاجـة إلى نار تشـعلهـا.. الـذات التى نورها مـصـدر كل الأنوار.. وتلك هى الشجرة المباركة المنزهة عن الجهات.. فلا هى شرقـية ولا هى غـربية.. فـهى فوق المكان والزمـان ومنزهة عن الأسباب فهى تضىء بلا نار.. تلك هى الذات الإلهية المتعالية على الصور.. ومع ذلك تتجلى فى كل الصور

﴿ هو الظاهر والباطن ﴾

ظاهر فى البحر والشمس والنجوم، وفى وجوه الحسان ولكنه غيرها جميعا.

هو الظاهر سبحانه، ولكنه ليس المظاهر.

وتلك هى الفتنة التى يقع فيها المؤمن والكافر.

تقول لـه المظاهر الجمـيلة وهى تدعوه إلى نفـسهـا بجمـالها ﴿إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾.

فإذا افتتن بها ووقع فى أسر جـمالها وعبدها، وقع فى الشرك الخفى وهلك.

وذلك هو حال الأغلبية والكثرة من عشاق المظاهر وعباد المال والجاه والنساء.

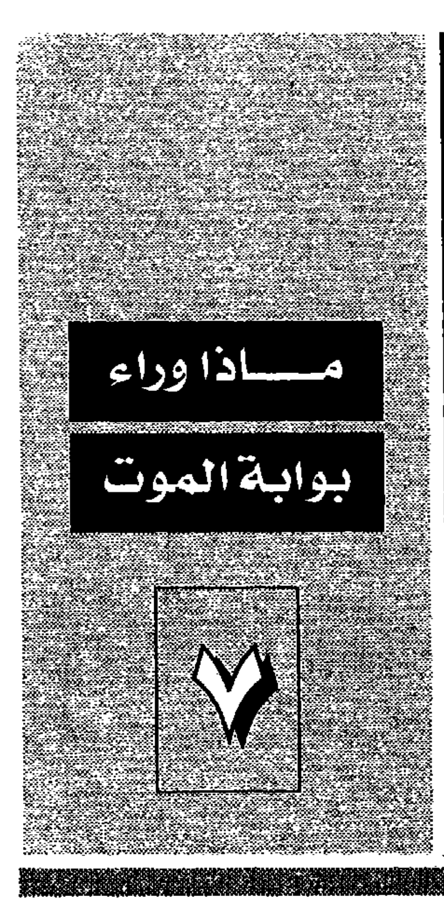
وإذا أدرك أن فتنتـها ليـست منها ولكن من الله المتـجلى فيـها وأنها كالمصابيح فى زجاجـات، ولكنها مصـابيح لا تضـىء بذاتها، وإنما بمدد وأسلاك من شجـرة مباركة هى التى تأتى منها الإنارة لكل المـصابيح.. إذا أدرك ذلك تجـاوز بعبـادته كل المظاهر وكل

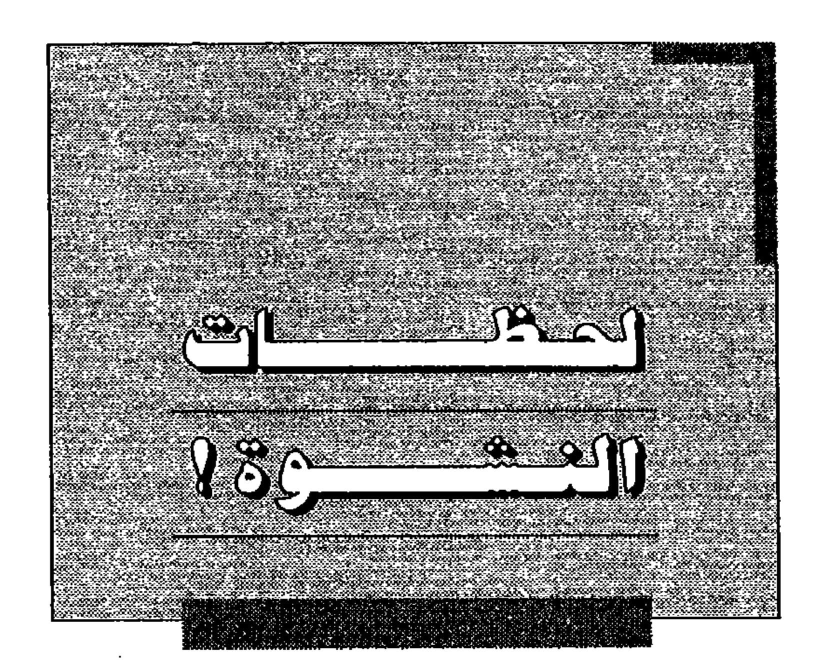
المصابيح المنيرة، وتوجه إلى الله الذى ينيرها كلها بنوره.. وخرج من زحام الكثرة إلى صفاء الوحـــدة.. واختص الله وحده بالعبادة.. وإذا فعل ذلك نجا. وذلك حال القلة من العارفين. وهذا سر الدنيا.. ولهذا خلقـها الله.. لتمتـحن بإغرائها معــادن النفوس، ويتميـز بها العارف من الجـاهل.. وتتميـز بها المـراتب والمنازل والدرجات.. ويعرف بها أهل الصدق صدقـهم، وأهل الكذب كذبهم حينما تنشر الأعـمال، وتهـتك الأســرار فى يوم الحـشر ويوم الـتغـابن الذى لا ينفع فيه ادعـاء الأدعياء.. يوم يشعر كل إنسان أنه غـبن نفسه حينمـا تعجل لذة تافهة وزائلة لا تســاوى شيئا وحرم نـفسه من ميراث جنة لا تنفد لذائذها ووشوش له البحر.. وهمس الموج

وتناثر كالماس على وجهه وقدميه.

واتصل السر بالسر.

ومضى الحوار.


مـــاذا وراء
بوابة الموت
٧


لحظـــات
النشـــوة !

لا أظنني وحدى الذى عشت تلك اللحظات وباشرت ذلك الشعور .. ذلك الإحساس المؤنس قد عاشه كل منا حينما بلغ شاطىء البحر وألقى بكل همومه خلفه وطرح الدنيا وراءه وألقى بنظرة شوق عانقت المياه اللازوردية وغرقت فى لا نهائية الأفق واستسلمت لتلك المعية المبهمة وذلك الحضور الغيبى .. ذلك العناق الجميل مع المطلق .. فأنا وحدى ولست وحدى .. فمن وراء الزرقة اللازوردية ومن خلف همهمة الموج ومن وراء هذا الإطار البديع واللوحة المرسومة بإعجاز هناك يد الخالق المبدعة لكل هذا .. هناك ذات الرسام انشقت عنها الحجب واستشفها الوجدان واستشرفتها البصيرة .

فكأنما يدور الخطاب بين ذات الرب وذات العبد .. وكأنما يقولى ربى :

ليس بينى وبينك بين .. ليس بينى وبينك أنت .

هذا أنا وأينما توليت فليس ثمة إلا وجهى كل شىء لى ، فكيف تنازعنى مالى ، كل شىء لى وأنا لا شريك لى .

حتى « الأنا » وأنت تدعيها لنفسك .. هى لك نفحة منى أعطيها متى أشاء وأستردها متى أشاء

هى لحظة فريدة من لحظات التجرد الكامل يشعر به أصحاب القلوب فى مجابهة الجمال .. لحظة من لحظات التبرى والتخلى

عن كل الدعاوى والمآرب والأوطار .. والخضوع لصولة الجمال والجلال .

لحظة استنارة وإدراك وتوبة وتنازل وإعادة الحق لصاحبه .

ارتفع الحجاب .. وما كان حجابى سوى نفسى .. سوى «الأنا» المعاندة داخلى .. فما عادت فى داخلى أنانية ولا منازعة ولا ادعاء لحق .. فقد أعدت كل الحق لصاحبه .. لله وحده .. فالله وحده هو الحقيق بأن يقول : « أنا الذى هو أنا » .. إنما أقولها أنا على وجه الاستعارة .

﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم** ﴾ (الأنفال : الآية ١٧)

﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ (الأنفال : الآية ١٧)

فهذا هو الله يفعل على الدوام .. وهو الفعال لكل شىء .

وحينما يبدو أن الطبيب هو الذى يشفى والطعام هو الذى يشبع والماء هو الذى يروى والسهم هو الذى يقتل .. فإنما هى الأسباب تفعل فى الظاهر . . والله من وراء الأسباب يفعل فى الحقيقة .. هو .. أنه هو دائما .. هو .

هو الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

ولحظة الكشف أشهدتنى الإبداء والإعادة فى حكومة التفريد ومحت عنى ما يرجع إلى ذاتيتى ومحت عنى « الأنا » الأنانية داخلى .. ورفعتنى إلى ذروة معرفية .. وإلى مقام .. ما ثم إلا الله .

﴿ **قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾(الأنعام :الآية ٩١)

﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين** ﴾(الأنعام : الآية ١٦٢)

انتهى فى داخلى كل ما يخصنى فأنا كلى لله ..محياى ومماتى ونسكى وصلاتى .

أكاد أسمع صوت الله فى قلبى .

ألق الاختيار ، ألق المؤاخذة البتة .

تنازلت ساعتها عن اختيارى باختيارى ورضيت باختيار الله وأسلمت ناصيتى لربى فسقطت عنى المؤاخذة وحقت لى المودة.. وذلك هو الإسلام الكامل .. إسلام « الأنا » لخالقها يقلبها فى الأحوال كيف يشاء .

سقطت كل الدعاوى وعدت إلى المبتدأ .. إلى الفطرة والبكارة الأولى .. حيث ماثم إلا هو .. وذلك مقام الفناء عند أهل الأشواق .

وهو حظ الأفراد الكمل والأنبياء والصديقين والأبرار يعيشونه طوال الوقت ، أما نحن فحظنا من هذا المقام لحظة .

حظنا .. شميم .. ووقفة على العتبات ذات صباح .

يقول العارف الكامل محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفرى :

بداية الوقفة ألا يكون هناك « سوى » لتكون عنده وقفة . فأنت لا تعود ترى إلا الله حيثما توجهت .

﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾

(البقرة : الآية ١١٥)

لا شىء سوى الله .

على اتساع الوجود .. لا موجود بحق إلا هو .. وإنما وجودنا مستعار منه ومقترض من وجوده وموهوب من فضله .

ومن يؤتى هذا الإحساس تكون حياته كلها سكر وعذابه كله شكر .

يقول مولانا الشاذلى لربه مبتهلا :

« خذنى إليك منى وارزقنى الفناء عنى .. ولا تجعلنى محجوبا بحسى مفتونا بنفسى » .

إنه يريد أن يستحضر تلك اللحظات على الدوام ويعيش فى هذا القرب طوال حياته .. وهيهات .. فهذا مقام لا ينال بالتمنى .. ولا يبلغه إلا آحاد .. هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى .. وصنعهم الله على عينه .

ومن يتذوق تلك اللحظات يشتاقها ويتشممها ويتحسسها من وراء الحجب والأسباب والمظاهر ويراها فى النعيم وفى العذاب وفى العطاء وفى الحرمان .

ويقول هذا العارف المشتاق :

ولولا سطوع الغيب فى كل مظهر

لأحرقنى شوقى وأهلكنى وجدى

فهو يرى ذات الحق تسطع من وراء الحجب والمظاهر تبدو له فى كل شىء فى ابتسامة الوليد وفى تفتح البرعم وفى طلعة الفجر ، وفى حمرة الشفق ، وفى زرقة البحر ، وفى عطر الورود ، وفى العطاء ، وفى الحرمان ، وفى البلاء ، وفى النعيم .

وهو يقرأ مشيئة الله تعالى فى الحوادث ويفض شفرة إرادته فى مجريات التاريخ .

والعارفون الكمل كالأطفال الأطهار يحيون فى انبهار دائم طوال الوقت ويقولون : نحن فى سعادة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف .

وهى ليست سعادة السلبية والعزلة والانقطاع بل هى سعادة إيجابية فاعلة ، فالكاملون منهم مثل سيدى أبو الحسن الشاذلى وعبدالقادر الجزائرى ونجم الدين كبرى حاربوا الصليبيين والتتار وقاتلوا الاستعمار فى الشمال الإفريقى وفى السودان وتصدوا للباطل حيث كان ولم يركنوا للعزلة ولا للتواكل .

وكان نجم الدين كبرى يقذف بالحجارة التتار الذين يرمونه بالنبل .. وهو يترنم فى نشوة هاتفا : اقتلنى بالوصال أو بالفراق.. حتى سقط فى بركة من دمه ولفظ أنفاسه .

فلم يكن يبالى على أى وجه كان فى الله مقتله فهو المحب المشتاق فى جميع الأحوال .

وهؤلاء هم الأكابر الأفراد .. حظنا منهم لحظة .. وشميم حال.. وذكرى عطرة .. وتلك هى صرافة التوحيد وترنيمة لا إله إلا الله.. تجدها شذرات متفرقة فى الإنجيل وفى التوراة وفى نشيد اخناتون وفى كتاب الموتى .. وتجدها مستخلصة مجموعة مكثفة عميقة هائلة فى القرآن وكأنما هى معزوفة سماوية أو سيمفونية علوية قدسية تترنم بها السطور والآيات .

وفى بحار ابن عربى وأبو حامد الغزالى وابن الفارض وابن عطاء الله تجد سكارى التوحيد من الأكابر الذين سجدوا فسجدت قلوبهم فلم ترتفع من سجدتها حتى لفظوا أنفاسهم .. جعلنا الله منهم وختم لنا بالسلامة ببركتهم إنه سميع مجيب .

التجلى الآخر

وقد يعتب على الأصدقاء الخلصاء ويقولون لى كيف تترك نفسك لتغيب فى السكر والوصال الصوفى وقد عهدناك صاحيا لدرجة الصراخ .

وأقول لهم : إنما أسكر لأصحو وأفيق وأستجمع نفسى وأحتشد لألتحم من جديد بهذا العالم وأصرخ فالواقع الذى نعيشه أمر من أن نصارعه فرادى .. إنما نصارعه بالله .. وبدون الله لا أمل .

وكان نبينا يقول لربه : بك أحيا وبك أموت وبك أصول وبك أجول ولا فخر لى .

وقد حاول جبابرة روسيا لينين وستالين وغيرهما أن ينهضوا بروسـيا بدون الله وبدون دين فـسقطوا بهـا وسقطوا مـعهـا إلى الهاوية .

ومثل تجلى الله البديع والجميل فى سماواته والذى ذكرناه فى وقـفة البـحر .. كـان تجلى الرحـيم والرحمن والناصـر والجبـار والمنتقم فى غـزوة بدر على قلة من المسلمين بلا عـدة وبلا عدد فانتصروا على كثرة مسلحين بالعدة والعتاد .

﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة** ﴾(آل عمران:الآية ١٢٣)

﴿ **أم حسـبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتـكم مثل الذين خلوا من قـبلكم مـسـتهـم البأسـاء والضـراء وزلزلوا حـتى يقـول الرسـول والذين آمنـوا مـعـه مـتى نصـر الله ألا إن نصـر الله قريب** ﴾ (البقرة : الآية ٢١٤)

فتجلى عليهم الله بنصره .

ويأتى النصر فى الحالين على غير المألوف فتنتصر القلة على الكثرة وتنهزم العدة والعتاد أمام الفقر العسكرى والحربى .. حتى تكون حجة الله ملـزمة وحتى لا يخرج من المنتـصرين من يقول : إن الخطة والتكتـيك والكر والفر هو الذى أتى بالنـصر .. والله هو الفاعل دائما فى جميع الحالات ولكنه يتخفى بالأسباب .

وما شقت عصا موسى البـحر ولا ابتلعت ما يلقى السحرة من أفاع وثعـابين ولا فجرت عـيون الماء من الصـخر .. ولكن الله هو الفاعل من وراء الأسباب وتلك مشيئـته وكلمته وإنما أخفى إرادته فى أسبابه .

وإنما يكون التجلى أحيانا باهرا سـاحرا وخالبا للألباب لينقطع الشك وما السيول والأعاصـير والزلازل والبراكين والصواعق إلا جند من جنود ربك : ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ .

ولا يقنط المؤمن ولا ييأس ولا يلقى سلاحه مهما تكاثر عليه الأعداء ومهما حاصرته الهموم .. لأنه يرى قدرة الله فى كل شىء.. ويرى البعوضة حاملة الملاريا مجندة ويرى الفيروس حامل الإيدز مجندا .. ويرى الإعصار مجندا .. والرصاصة مجندة.. ويرى مشيئة الله تفعل ولا سواها .

والصمود أمام المحال من صفات المؤمن لأنه يعلم أنه يصارع بيد الله لا بيده .. وهو لا يعرف الجبن ولا الخوف ولا الفرار .

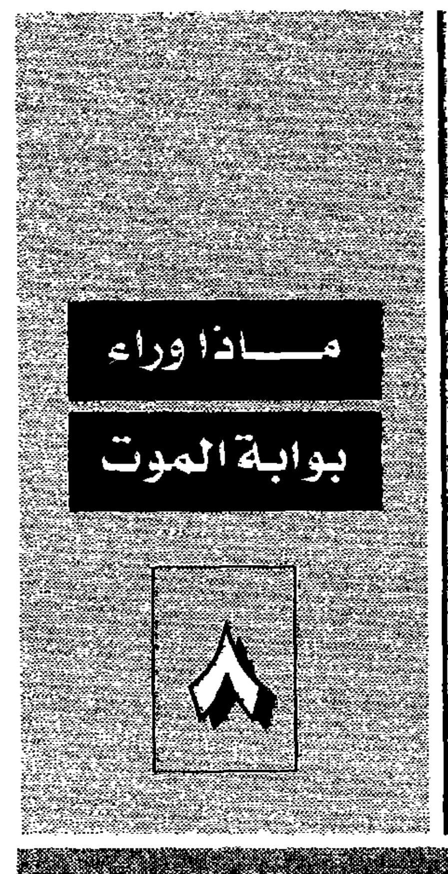
ولهذا اقتضى الإيمان .. الابتلاء .. لأن الكلام سهل ولأن كل واجد يدعى أنه مؤمن وأنه مستحق للجنة .. وقد زعم الجبابرة أمام شعوبهم حتى لحظة موتهم ، أنهم كانوا يحسنون صنعا واعتقدوا أنهم يستحقون التمجيد والإشادة .. فلزم الابتلاء حتى يصحو كل واحد على حقيقته وحتى يعلم منزلته .. والله فى غير حاجة إلى الابتلاء فهو يعلم منازلنا منذ الأزل . ولكنا نحن الذين يلزمنا الابتلاء حتى نعرف أنفسنا واليوم استدار الزمان دورة كاملة ونوشك أن نقبل على معركة بدر أخرى ويتكاثر علينا الأعداء من خارجنا ومن أنفسنا ونتراجع حتى يصبح ظهرنا إلى الحائط.. ويجثم علينا مستقبل مظلم .. ونعود أحوج ما نكون إلى الإيمان الصحيح والمعرفة الصحيحة بالله .. فلا سلاح حقيقى إلا هو ولا حصن إلا حصنه .

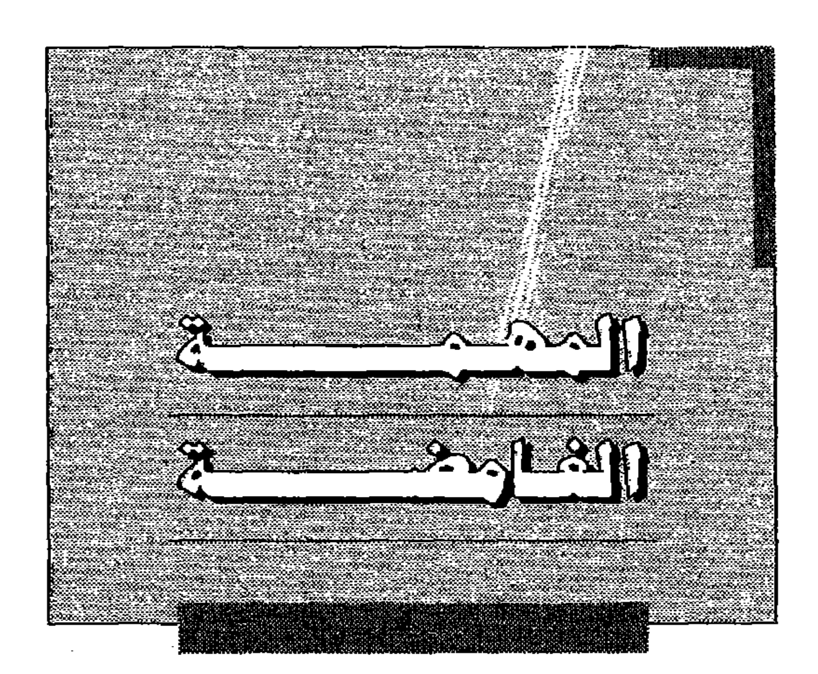
وتتجمع النذر والبشارات فى الأفق .

فهل نحن فى مستوى الامتحان ؟

وهل نحن مؤمنون حقا ؟

هذا هو السؤال الذى سوف تجيب عنه السنوات العصيبة القادمة .


مـــاذا وراء
بوابة الموت
٨


المهمــة
الغامضــة

ماذا تريد منا الطبيعة ؟..

هل كل واحد منا جاء إلى هذه الدنيا بمهمة .. وتكليف .. ورسالة عليه أن يؤديها ؟

هل الميلاد والنزول على هذه الأرض .. كان له سبب وغاية ؟

فى بريدى كل يوم أسئلة حائرة من هذا اللون .

لماذا خلقنا .

لماذا جئنا إلى هذه الدنيا ؟

ماذا يراد بنا أن نفعل ؟

هل لوجودنا حكمة وسبب وغاية ؟ أم أننا خلقنا لنموت والمسألة كلها عبث وسخف كما نقرأ فى كتب فلاسفة العبث ، وكما نرى فى مسرح اللامعقول ؟ .

وهل دورنا فقط أن نواجه هذا السخف وبطولتنا أن نتمرد عليه ونتحداه كما يقول كامو ؟ بطولتنا أن نلعق جراحنا ونصرخ .. سنعيش برغم العذاب وبرغم الألم ، ونصطنع لأنفسنا وهما وحلما .

وهل تكون حياة تلك التى نبنيها على وهم ؟ .

سؤال خطير وكبير .

والإجابة القاطعة عليه تحتاج إلى الإحاطة الكاملة بعملية الحياة ، والإحاطة بالزمن كله .. وما دار فيه من مبدئه فى

الماضى السحيق إلى منتهاه فى المسـتقبل .. فى الآخرة بعد عمر طويل .

لكى تعرف لمـاذا قامت الحـرب .. وما دورها .. لابد أن يكون لديك علم كـامل بمـا كان يجـرى قـبل هذه الحـرب .. وما جـرى أثناءها .. وما جرى بعدها .. أما إذا كنت جنـديا بسيطا فى الكتيبة تتلقى أمرا وتنفـذه ثم تموت فلن تكون حياتك أكـثر من لحظة فى هذه الحرب .. ولن تستشرف من مكـانك رؤية تعرف منها القصة كلها بخباياها وأسرارها .

إن العلم عند القـائد .. عند الخالق الذى بعث بك إلى الصـفوف الأولى .. وزودك بذخيـرة العمـر المحـدودة من ستين طـلقة فى ستين سنة هى كل عمرك.

الخطة كلهـا فى رأسه .. أنت بند واحد فى الـخطة .. أنت ورقة فى الدوسيه .

سطر .

كلمة .

حرف .. فى كتاب رائع لا نهائى اسمه الدنيا .

ولن يستـطيع الحرف أن يدرك الغـاية من وجوده إلا إذا أدرك الدور الذى يقوم به فى السطر الذى يشترك فى حروفه .. وإلا إذا أدرك المعنى الذى يدل عليه السطر فى داخل المقال .. والمقال فى داخل الكتاب .

لابد أن يكون عمـرك هو عمر الأبد لتـحضر رواية الحـياة بكل فصولها وتعرف الحكاية .

أمـا وأنت حالك حـال ممـثل فى مـسلسلة إذاعـية يطلق عليـه الرصـاص فى الحلقة الأولى ويمـوت .. فإن طلبـه معـرفة مـعنى

حياته .. يكون طلبا يتجاوز فيه حدوده .. ويطلب فيه المستحيل .. الجواب اليقين فى هذا السؤال إذن غير ممكن .

وكل مانستطيع أن نفعله هو أن نحدس .

ونخمن .. ونشطح بذهننا .

وأنا أحاول دائما أن أقرأ الإجابة .. لا من كتاب ولا من نظرية.. ولا من عقيدة .

ولكنى أحاول أن أقرأ الإجابة من التاريخ نفسه .. من حكاية التطور .. من استقراء الطبيعة مباشرة .

أنا أحاول أن أفهم ماذا تريد الحياة بنباتاتها وحيواناتها وماذا فعلت بهذه المخلوقات على مر العصور .

الحياة لها حكاية .

لقد بدأت بسيطة على شكل ميكروب .. خلية واحدة تقوم بكل الوظائف .. تتنفس وتتغذى وتنمو وتتحرك بدون أجهزة متخصصة.

ثم انقسمت الخلية إلى خليتين .. وكل خلية إلى خليتين وخرجت من الخلية الواحدة أعداد لا حصر لها من الخلايا .

ثم بدأت هذه الخلايا تتجمع فى قبائل وقطعان تتحرك معا وتتعايش معا .. ثم تلاصقت هذه الأعداد .. لتؤلف مخلوقات مركبة عديدة الخلايا ذات أجهزة متخصصة .. أقسام من خلاياها للتنفس.. وأقسام للتغذى .. وأقسام للحركة.. وأقسام للإفراز .. ونشأ النبات والحيوان المتطور .

وبمضى الأجيال والأحقاب الطويلة .. نشأت فصائل من النبات والحيوان .. كل منها تكيفت مع بيئتها .. نباتات الصبار فى الصحارى اتخذت لنفسها أوراقا ، وسيقانا لتختزن فيها الماء ..

والحيوانات المائية اتخذت لها زعـانف لتسبح .. والحيونات البرية اتخذت لها أرجلا لتمشى .. والحـيوانات الجوية اتخذت لها أجنحة لتطير .

مرحلة بعـد مرحلة .. انتقلت الحـياة من الوحدة إلى التـعدد .. ومن البساطة إلى التركيب .. ثم مـزيد من التركيب .. وهو تركيب له غاية واضحة .. هو سيادة الحيوان على بيئته .. وسيطرته على ظروفه .. الأجنحة أعطت الطائر القدرة على ركوب الجو والزعانف منحت الأسماك القدرة على ركوب البحر .. والأرجل منحت الدواب القدرة على الدبيب على البر .

وحينمـا ظهر الإنسان استطاع عـن طريق عقله أن يقفز قـفزة واسعـة .. فهـو لم ينتظر مليـون سنة لتنمو له أجنحـة يطير بـها وزعـانف يسبح بهـا .. وإنمـا اختـرع الأدوات .. اخـترع العـربة والباخرة والطـائرة والغواصة والصاروخ .. وهى أعـضاء جديدة حديدية أضافها إلى بنيـانه وانطلق يغزو بها الكون .. ولكنه مازال يجرى فى نفس الخط الذى كان يسير فيه الميكروب .. من الوحدة إلى التعدد « من الفرد إلى المجتمع » ومن البساطة إلى التركيب .. ومن التركيب إلى مـزيد من التركيب « الاختراعـات والقوى الآلية التى تزداد تركيبـا وتعقيدا يوما بعد يوم .. وبالحيـاة المدنية التى يعيشـها والتى يتعـقد فيها كل شىء بشكل مطرد .. من الكساء إلى الغذاء إلى الدواء إلى المعاملات والتنظيمات الخ .. الخ»

ومرة أخرى كان هذا التعـقد يهدف إلى نفس الغاية التى هدف إليها المـيكروب فى تطوره .. كان يهدف إلى السيطرة على البـيئة والسيادة على الظروف .. إلى ركوب الطبيعة واستغلالها وقيادتها بدلا من الخضوع للطبيعة والانقياد لها والتقيد بأغلالها .

كـان يهدف إلى الـقوة والقـدرة والمـعرفـة والوعى والحـرية ويكافح فى سبيل الاستمرار والبـقاء وهزيمة الموت : وفى سبيل أن يكون الإنسان هو السيد .. هو القدر .

ونحن حينما نـبنى سدا عاليا ننظم به ماء النـيل .. نحن نسير فى خط التطور ...وفق الغايات العليـا المكتوبة فى سفـر الحياة : وهى أن نسود الطبيعة وننظمها ونسـتغلها ونخط قدرنا وقسمتنا بأنفسنا .

الحياة إذن فيها غاية .

وهى برغم الموت .. وبرغم الألم والمرض والشيخوخة والشر والعبث .. برغم كل هذا تبدو متماسكة متصلة الحلقات منطلقة إلى غايتها مكرسة فيها الزمن كلها والخليقة كلها جيلا بعد جيل .

هناك مهـمة ورسـالة وتكليف .. كل منا ينزل إلى الأرض وفى عنقه هذا التكليف .. أن يضـيف طوبة جديدة إلى القلعة الحـصينة التى بنتهـا الحياة لـتتحصـن فيها وتـقود منها التـاريخ وتسوس الكون والطبيعة لصالحها .

ونحن مزودون من أجل هذه المهمة بجميع الأدوات الضرورية بالعـقل والإرادة والإصـرار ، ومـزودون بتـراث من الـعلوم والمعارف والخبرات .

نحن الوارثون لكل هذه المعارف لكى نضـيف إليها .. ويضيف الذين يأتون بعدنا فى سعى متصل .. لا يعنى فـيه الموت شيئا .. ولا يؤدى إلى أى انقطاع .. وكأنما الإنسانيـة كلها .. والحياة كلها مخلوق واحد .

حتى الجماد كان له فى سفر الـتطور شأن مماثل .. فقد خضع لنفس النامـوس .. فمـن ذرة الأيدروجين البـسـيطة المؤلفـة من

ألكتـرون واحـد وبروتون واحـد .. من هذه الوحـدات الأوليـة .. وبدخولها فى علاقات .. نشأت ذرات أكثر تركيبا .. وأكثر تعقيدا.. مرة أخـرى .. انتقال من البـساطة إلى التركـيب ومن الوحدة إلى التـعدد حـتى نصل إلى ذرة اليـورانيـوم وهى ذرة ثقـيلة نشطة ترسل إشعاعا .

ومن ذرة الكربون الـقلقـة المـتـعطشـة إلـى الاتحـاد بالذرات الأخرى نشـأت سلاسل المواد الهيـدروكربونية وهى مواد أكـثر تراكبا وأكثر تعقـدا ، جتى نصل إلى جزىء البروتين الحى فنصل إلى أكثر الوحدات المادية تعقدا وتراكبا وثقلا .

وهناك نظرية فلكية تقول : إن كل شىء نشأ من النور من هذه المادة اللطيـفة المفرطة فـى البساطة .. هذا الإشعـاع المؤلف من فتـافيت مـادية مفـرطة فى الصغـر .. اسمـها الفـوتونات .. هذه الوحدات التى هى أصغر وحدات الكون وأسـرعها حركة وأبسطها تكوينا فـتافـيت أشـعة جـامـا .. وبيتـا والأشـعة الكونيـة .. هذه الوحـدات التقت فى فـضاء الكون الشـاسع فى مكان ما ونـشأت منهـا تواليف هى التى أنتجت فـيمـا بعد الألكترون والـبروتون .. ومن الألكتـرون والبروتون تكـونت ذرة الايدروجين .. ثم سـائر الذرات .. إلخ .. من الـبسـاطة إلى التـركـيب ثم إلى مـزيد من التركيب.

هناك خط سير إذن .

الحياةليست خبط عشواء .. ولا مصـادفات ولا عبث .

والكون ليس حركة بلا وجهة .

وإنما حركة ذات وجهة .

المادة تـتطور فى خط سيـر واضـح من الوحدة إلى التـعدد ..

ومن البساطة إلى التركيب . ومن العــجز إلى القدرة .. ومن العماء إلى الرؤية . ومن الخضــوع للطبيعــة إلى السيادة على الطبيــعة .. وإخــضــاع الطبــيــعــة .. ومن الظلام إلى الــنور ومن الجــهل إلى المعرفة .

وقد يعود السائل فيسأل مرة أخرى .

ولمــاذا تكون هناك حــيــاة من الأصل ، ولمــاذا يكون هناك أى اتجاه إلى السيادة على الطبيعة .

ألا يكفى أن تكون هناك طبــيعة .. مــا الداعى لأن تعى الطبيــعة نفســها .. وتقود نفســها بنفســها .

والجواب أنها بهذا تحقق الحرية.

بالمــعرفة والوعــى والقوة والســيادة يكتــشف الإنسان نفــسه ويمتلك كنوز عقله .. ويســيطر على الطبيعة حوله ويحــقق حريته ووجوده ويعرف نفــسه ويعرف ربه ويبلغ السعــادة .. والسعادة لا تبحث لنفســها عن سبب .. فهى دائما غاية ذاتها .

ويعود السائل فيقــول إن هذا الكلام يفسر لنا التطور والتاريخ واتجاه الطبيعة فى سيرها .. ولكنه لا يفسر وجودها لماذا وجدت من الأصل .

لمــاذا يكون هناك امتــلاء ولا يكون هناك خــلاء ، لماذا وجــود لا عدم ؟

والعــقــاد رحــمه الله له رد علــى هذه المــعضلة . فــهــو يقــول بأسلوبه المنطقى .. إن العدم مــعدوم فلا وجه للقــول بوجوده أو مناقشة وجوده .

ومــادام العدم مــعدومــا فالوجــود امتــلاء صرف لا نهــاية له ولا آخر ولا حــدود .. لأن الوجود لا يمكن أن يحده ســوى العدم والعدم معدوم .

فــالوجود إذن لا مــبدأ له ولا منــتهى .. ولا يصح السـؤال عن متى خلق .. ولم خلق .. فــهو أبدى فى الزمان ، ولم يكن مـعدوما ليقــال .. متى خلق .. وهى حجج منطـقية ترضى العـقل .. ولكنها لا تشبع الـشعور الذى يعــانى الموت .. ويحس بدبيـب العدم فى زحف الشيخوخة على الأوصال .

إن السؤال يفرض نفسه برغم لا معقوليته ويلح على الحواس .

ولم كان كل هذا .

وما الحكاية .. وما القصة .

ولم بدأت .. مادام مصيرها أن تنتهى .

هناك سر .

هناك ثغرة .. فى هذا البناء المنطقى الذى بنته لنا الفلسفة .

إن كل حجج الفلسفة تنهار أمام ضــربات الموت وكأنها خيوط عنكبــوت .. وكأنها كــلام .. مجــرد كلام .. لا يشفــى ولا يشبــع .. ولا يزن شيئا أمام واقع مر أليم شاخص أمام الحواس .

هذا البناء المتهاوى من المنـطق لا يمسك نفسه .. وهو يكشف عن قصوره .

هناك سر .

وأنا اعتقد أن هناك أســرارا لا سرا واحدا . وأن علمنا لا يغطى كل شىء وأن عمرنا المحدود لا يمــكن أن يعطى إلا لمحة مجدودة من الحـقيـقة .. وإننــا نحن جنود الكتيــبـة التى اسمــها « القـرن العشــرين» موفدون فــى مهمــة محدودة تنتــهى بنهاية عـمرنا .. ولا يمكن أن نعرف خبايا الخطة كلها .. فالخطة فى رأس القائد .. الخــالق .. ونحن مــجرد بند فــى الخطة .. ورقة فــى الدوسيــه .. حرف .. ولا يمكن لنا أن نحيط بالحقيقة .

الحقيقة لا تدركها إلا عين تنظر من ربوة الأبدية على الزمن كله.

كل ما أستطيع معرفته هو أن هذه الحياة ليست عبثا ولا سخفا.. وإنما هى نظام محكم له غايات .. وأننا نسير كالجيش.. لنا مسيرة .. ولنا مخطط وأنا لا أعرف المخطط كله .. وإنما أعرف القليل جدا .

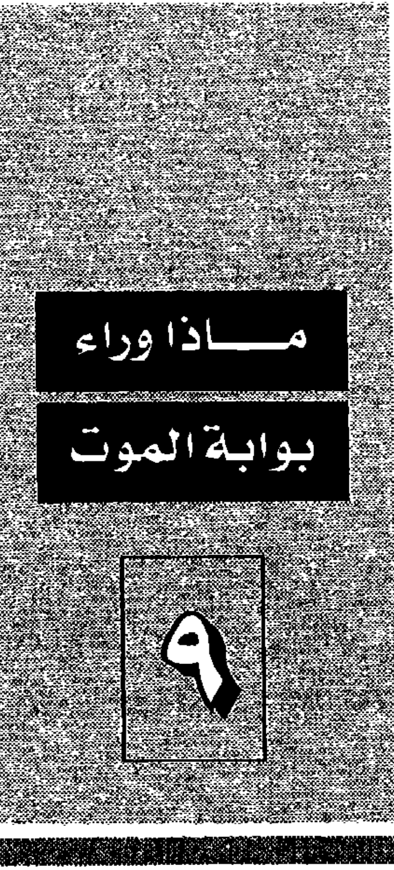
ولكن على مرور الزمن اللانهائى .. تكتشف الحياة طريقها .. وتزداد معرفتها قليلا بقليل .. فيعرف أحفادى ما لم أعرف أنا .. ويتصل مجرى العلم الذى لا يبدو أنه ينقطع أبدا بموت أحد .. وإنما هو يستمر يحفر طريقه فى الظلمة .

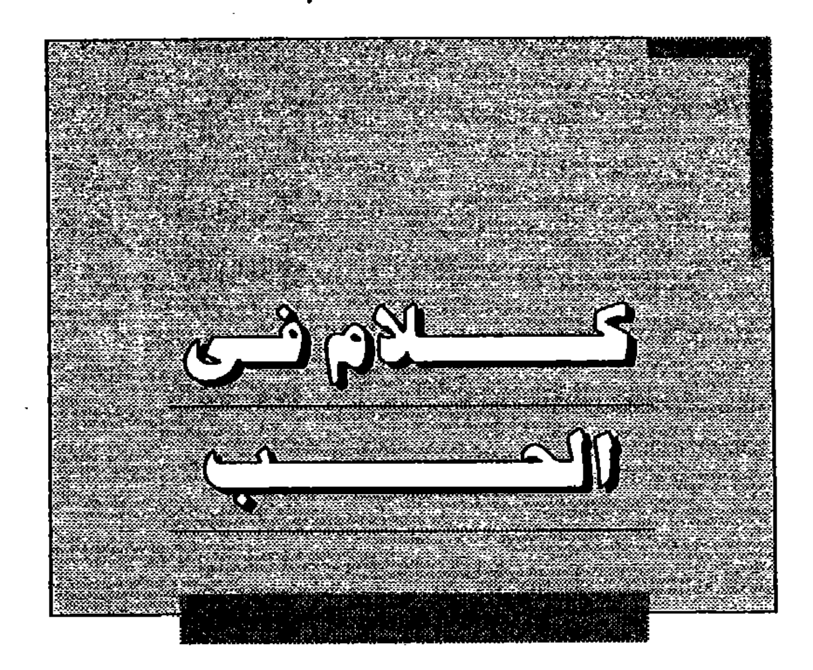
ولا يوهن من عزمى أنى موفد فى هذا الطريق فى بعثة غامضة.. ومهمة غير مفهومة .. فمنتهى شرفى أنى فعلت كل ما أستطيع .

وإذا كان كل ما وصلت إليه أن هدف هذه الرحلة هو التكامل .. تكامل القوة .. وتكامل الحس .. وتكامل السمع .. وتكامل البصر .. وتكامل العقل .. وصولا بذلك إلى معرفة الإنسان لنفسه وإدراكه لربه ومن ثم عبادته .. فإن جلال هذه الأهداف وعظمة هذه الغايات هى مبرر كاف لمشقة الطريق .

وهل بعد الله هدف .. ؟؟!!

وهل بعد الله سؤال .. ؟؟!!


ماذا وراء
بوابة الموت
٩


كلام فى
الحب

الحب والهوى والغرام خداع ألوان، ما نراه فى المحبوبة مثلما نراه فى قوس قزح، جمال ألوان قوس قزح ليس من قوس قزح نفسه ولكنه من فعل نور الشمس على رذاذ المطر المعلق فى الهواء.. فإذا غابت الشمس وجف المطر اختفت الألوان وذهب الجمال.

وهكذا محبوبتك جمالها فيما يتجلى عليها من خالقها.. فإذا انقطع عنها التجلى شاخت ومرضت وذبلت وعادت قبحا لا جاذبية فيها.. إن ما كانت تملكه من جمال لم يكن ملكا لها بالأصالة، بل كان قرضا وسلفة.

حتى السجايا الحلوة والنفوس العذبة والخلال الكريمة هى بعض ما يتجلى فينا من أسماء خالقنا الكريم الحليم الودود الرءوف الغفور الرحيم.

أليست هذه أسماؤه..!؟

وهل نحب حينما نحب إلا أسماءه حيثما تحققت وأينما تحققت.

وهل نحب حينما نحب سوى حضرته الإلهية فى كل صورة من صورها.

والحكيم العارف من أدرك هذه الحقيقة فاتجه بحبه إلى الأصل إلى ربه ولم يلتفت إلى الوسائط ولم يدع بهرج الألوان يعطله.. ولم يقف عند الأشخاص.. فهو من أهل العزائم لا تعلق له إلا بربه.. لقد وفر على نفسه خيبة الأمل وانقطاع الرجاء وخداع الألوان.

لقد أحب من لا يهجر، وعشق من لا يفتر، وتعلق بمن لا يغيب، وارتبط بمن لا يموت، وصاحب من بيده الأمر كله وساهم فى البنك المركزى الذى يخرج منه النقد جميعه.. وهام بالودود حقا ذاتا وصفاتا وأفعالا..

وذلك هو مذهب العارفين فى الحب.

فهل عرفت.

وإذا كنت عرفت.. فهل أنت بمستطيع.

وليس كل عارف بمستطيع.

ومذهب العارفين ليس مجرد معرفة.. ولكنه همة واقتدار وكدح ومغالبة.. والنفس لا تستطيع أن تعشق إلا ما ترى ولا أن تتعلق إلا بما تشهد بصرا وسمعا وحواسا.

أما تعلق الفؤاد بالذى ليس كمثله شىء فمرتبة عليا لا يوصل إليها إلا بالكدح والكفاح والهمة.. وقبل ذلك كله.. بالتوفيق والرضا من صاحب الأمر كله.

ولهذا أدرك العارفون أن هذا أمرا لا يمكن الوصول إليه إلا ركوعا وسجودا وابتهالا وعبادة وطاعة وخضوعا وخشوعا وتذللا وتجردا وإن هذه مرتبة لا تنال بشهادة جامعية ولا بماجستير أو دكتوراه، أو تحصيل عقلى.. ولكنها منزلة رفيعة لا مدخل إليها إلا بالاخلاص وسلامة القلب وطهارة اليد والقدم والعين والأذن ولا سبيل إليها إلا بخلع النعلين.

تخلع جسدك ونفسك.

وليس مقصود القوم هنا هو الزهد الفارغ والتبطل.. وإنما أن تخلع حظك وأنانيتك وشهوتك وطمعك وشخصانيتك، وأن ترتد إلى الطهارة الأولى اللاشخصانية التى تعطى فيها وتحب دون نظر إلى حظ شخصى أو عائد ذاتى.. فهى حالة عمل وعطاء وبذل وليس حالة زهد فارغ وتبطل. وهى فى ذروتها حالة فداء وتضحية فى

سبيل إعلاء كلمة الله.. تضحية لا تنتظر إلى نيشان أو نصب تذكارى. ولكنها تبذل المال والدم والنفس لوجه الله وحده.

ويقول العارفون إن مائدة الاستشهاد هى أعلى موائد التكريم ولا دخول إليها إلا ببطاقة دعوة من صاحبها. ولا دخول إليها اقتحاما أو قهرا وتبجحا.. وإنما هى دعوة من الكريم يتلقاها صاحب الحظ بالتلبية والهرولة ويتلقاها المحروم بالتكاسل والتخاذل.. والتخلف.

ذلك هو الحب فى مذهب القوم وهو غير الحب فى مذهب بعض منتجى أفلام السينما ومؤلفى الرومانتيكيات، وهو أيضا غير الحب عند كثيرين من الناس. حيث الحب هوى ونار وشهوة ولحظات تتألق بالشعر ثم ما تلبث أن تخبو وتنطفىء وتترك رمادا من الأكاذيب.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف : الآية ٢١)
﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ (العنكبوت : الآية ٦٣)
﴿إن يتبعون إلا الظن﴾ (لأنعام : الآية ١١٦)
﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظنا﴾ (يونس : الآية ٣٦)
﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ (النجم :الآية ٢٣)
﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل﴾ (الفرقان : الآية ٤٤)

هكذا يعلمنا القرآن أن الكثرة لا تعرف أما العارفون فقليل ما هم ولكن الصحافة التى تخاطب الكثرة والسينما التى تتملق الجماهير والمؤلفين الذين يطمعون فى الرواج والشعراء الذين يتبعهم الغاوون يتغنون بألوان أخرى من الحب. ويتيهون معها فى أودية الغفلة التى تنتهى بنا إلى جنون قيس وانتحار جوليت وسقوط راهب تاييس ومباذل فالنتينو وجرائم آل كابونى وموائد مونت كارلو.

وهو أمر قديم قدم التاريخ منذ أيام بابل، ومنذ أيام أنطونيو

وكليوباترة ومنذ أيام الفراعنة والإغريق والرومان.. ونقرأ فى كتاب الموتى هذه السطور التى كتبها الحكيم المصرى منذ خمسة آلاف عام.

لا تنظر إلى امرأة جارك فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك.. إنها لحظة قصيرة كالحلم والندم يتبعها، إنها معارف قديمة منذ أيام آدم. وقصة بائدة منذ مقتل هابيل.

ولكن لا أحد يذكر.. ولا أحد يعتبر.. ولا أحد يتعلم من الدرس.

وأكثر الذين يعرفون لا تنفعهم معرفتهم بسبب ضعف الهمم وتخاذل الأنفس وغلبة الشهوات.

إن السلالم إلى الأدوار العليا موجودة طول الوقت، ولكن لا أحد يكلف نفسه بصعود الدرج والأغلبية تعيش وتموت فى البدروم.

ولو كلف أحد منهم نفسه بالصعود.. وتحمل مشقة الصعود وشاهد المنظر من فوق، لبكى ندما على عمر عاشه فى البدروم بين لذات لا تساوى شيئا ولكنه الضعف الذى ينخر فى الأبدان.

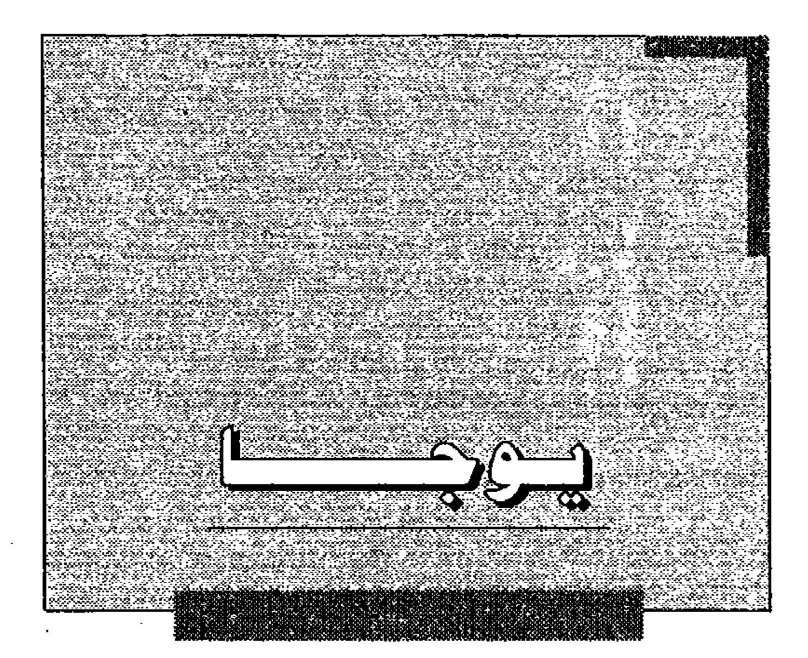
والبشرية تسير من الضعيف إلى الأضعف، والأجيال الجديدة أكثر ضعفا وأكثر تهافتا على العاجل البائد من اللذات، واقرأ المقال من أوله واسأل نفسك. من أى مرتبة من البشر أنت. هل أنت عارف؟ وإذا كنت عارفا. فهل أنت بمستطيع؟

وابك ما شئت من البكاء فلا شىء يستحق أن تبكيه. لافقرك ولافشلك ولا تخلفك ولا مرضك.. فكل هذا يمكن تداركه أما الخطيئة التى تستحق أن تبكيها فهى خطيئة البعد عن إلهك.

فإن ضيعت إلهك.. فلا شىء سوف يعوضك.

وكل أحلام الشعراء لن تغنيك شيئا.


ماذا وراء
بوابة الموت
١٠


يوجا

سعيت وراء علماء التشريح لأعرف ما هو الإنسان.. سرت وراء المشرط وهو ينقب فى الأحشاء والمصارين واللحم والعظم.. وهو يفتح القلب ويتتبع الأعصاب حتى نهايتها.. وهو يقطع المخ نصفين، ثم يقطع كل نصف إلى نصفين.

وبعد ثلاثة آلاف صفحة من كتب التشريح لم أصل إلى شيء وكأنما فتحت حقيبة فوجدت داخلها حقيبة ثم حقيبة، وفى نهاية المطاف اكتشفت أنى مازلت واقفا فى مكانى أدق على الباب نفسه من الخارج، لم ألج إلى الداخل قط.

كنت طول الوقت اتحسس كسوة ذلك الإنسان لأكتشف أن القناع الذى يحجبه ليس ثيابه وحدها.. وإنما جلده ثوب آخر.. ولحمه وشحمه وعظامه كلها ثياب.. أما هو نفسه فبعيد.. بعيد.. تحت هذه الأقمشة السميكة من اللحم والدم.

قالت لى كتب التشريح إن الإنسان مجموعة من الأحشاء فى قرطاس من الجلد.

ولكنها لم تصف لى الإنسان على الإطلاق.

وإنما وصفت ثيابه أما قلبه، أما عواطفه، فإنها ليست فى تلك الكتب.. إنها فينا نحن الأحياء.. إنها الزامر الذى ينفخ من الداخل فى ذلك البوق الجسدى الذى يتألف من الفم واللسان والشفتين

واليدين والرجلين فتنطق وتتحرك كأنما هى دمى خشبية تحركها خيوط خفية من وراء خباء.

إنها الـعاطفة.. الإرادة.. الـروح.. النفس.. الـ أنا.. سمـها كـما تشاء.. ولكنهـا دائما غاية فى الوحدة والبســاطة.. وراء هذا العديد المتعدد من الأعضــاء هناك وحدة هناك دائما واحد فقط يتكلم من داخل المـعـمار الجـسـدى المـعقـد التـركـيب المـتعـدد النوافـذ والشــرفـات.. واحـد فـقط بالرغم مـن هذه الألوف المـؤلفـة من الأنسجة والملايين بلا عدد من الخلايا.

فإذا نظرت إلى الطبـيعة حـولك بما فيـها من إنسان وحـيوان ونبات لمـست مرة أخرى نوعــا ثانيا من الوحـدة.. فهذا الشــتيت المختلف من أشكال الحياة يخفى وراءه وحدة.

وأنت والشجرة تتألفان من المـواد ذاتها.. كربون وماء وأملاح معدنيــة.. وكلاكما يتـحول بالاحتراق إلى فحم وكـل أنواع الحياة تنهدم بالموت فتستحيل إلى تراب.

أكـثر من هذا، يقـول لك الفلكى : إن هذا التـراب يحتـوى على المواد نفسـها التى تتــركب منها الشمس والنجوم والكواكب.. وإنك مــهمــا أوغلت فى السمــاء بين النجـوم تجد دائمــا الشـىء نفســه. والمواد ذاتها.. كل العالم من مــادة واحدة أولية لا يمكن أن تكون كل هذه مـصـادفـات وإنما هى أصــبع تشـير إلى أن هناك وحـدة نســيج فــى هذا الكون المـتـســع العظيم وأنه بالرغم مـن الكثـرة الظاهرة والتعـدد والاختلاف فى الأشـياء فإنهـا فى الواقع ليست مختلفة.. وإنما هى مجرد عمائر وتراكيب مختلفة لشىء واحد.

كـما تظهـر الطاقة مـرة على شكل كـهرباء. ومـرة على شكل حرارة.. ومرة على شكل ضوء. ومرة على شكل مغناطيسية وهى

دائما الشىء الواحد ذاته.

الوحدة.. هذا هو موضوع اليوجا.

والمعنى الحرفى لكلمة يوجا بالهندية هو الاتحاد وإدراك الوحدة فى الأشياء.

أنت وأنا وهو وهم شىء واحد.

هل تستطيع أن تدرك هذه الوحدة؟

علوم اليوجا تقول إنك لا تستطيع أن تدركها إلا إذا تحررت من تقاليدك.. وأخضعت جسدك وعواطفك وغرائزك وعقلك تماما إذا أردت أن تسمع صوت الواحد فى داخلك فلابد من إسكات صوت المتعدد أولا.. لابد من إسكات صوت الجسد والنفس والغريزة والرغبة والعقل.

وإخضاع الجسد تختص به علوم «الهاتايوجا» وهى التمرينات الرياضية المعروفة.

وإخضاع العقل تختص به علوم «الراجايوجا».. وهى تمرينات على التأمل والتركيز.

وإذا استطعت إسكات كل شىء فسوف تسمع من أعماق الصمت فى داخلك صوت الواحد.

سوف تشعر بالقرابة الحميمة بينك وبين الأشياء.. سوف يعزف فى داخلك لحن الانسجام بينك وبين العالم.. إذ تدرك التوافق العميق بين عناصرك وعناصره.. وتسودك طمأنينة قدسية فلم يعد هناك داع للتعجل.. ما يفوتك باليمين سوف تحصل عليه باليسار وفى الهند يسمون هذا الواحد «اتمان» .. وفى «صلاة هندية قديمة لهذا الواحد يقول الشعر السنسكريتى :

إذا ظن القاتل أنه قاتل

والمقتول أنه قتيل
فليسا يدريان ما خفى من أساليبى.
حيث أكون الصدر لمن يموت والسلاح لمن يقتل
والجناح لمن يطير
وحيث أكون لمن يشك فى وجودى
كل شىء حتى الشك نفسه.
وحيث أكون أنا الواحد وأنا الأشياء.

وكأنما شعر جميع المفكرين بهذا الواحد الخفى. وحاول كل منهم أن يعبر عنه بطريقته.. فى فلسفة شوبنهور كان اسمه «الإرادة». وفى فلسفة نيتشه كان اسمه «القوة» وفى فلسفة هيجل «المطلق» وفى فلسفة ماركس «المادة» وفى فلسفة برجسون «الطاقة الحية» وفى الأديان السماوية اسمه الله.

اتفقت جميع الأصابع التى تشير إلى أن هناك شيئا داخل خباء ذلك الكون يحرك خيوطه.. وكل الخلاف هو خلاف أسماء.

ولهذا تقول علوم اليوجا.. لا تحاول أن تسمى ما لا يمكن تسميته.. تأمل.. لا تنطق بحرف.

عليك بالإصغاء إلى صوت الصمت.. ثم جاء الإسلام بأجمل وأصدق تعريف بذلك الذى وراء الصمت.. لم يخلط الخالق بالمخلوق كما خلطت اليوجا الهندية كل شىء فى وحدة الوجود فجعلت من القاتل والقتيل والسكين شيئا واحدا تضيع معه المسئولية ويضيع الجزاء فى ضباب الشعر.. وإنما قدم القرآن أنقى صور التوحيد وأرقى صورة لوحدة الخالق ووحدة المخلوقات.. فتوحدها لأنها منه.. أما هو فمتعال عليها.. سبحانه.. ليس كمثله شىء.

السـم والتـريـاق

لكل شيء آفة من جنسه حتى الحديد سطا عليه المبرد
الله خلق لكل شيء آفته التى تعتدى عليه.
خلق القطن وخلق دودة القطن.
خلق النبات وخلق الجراد.
خلق الأسنان وخلق السوس.
خلق العين وخلق الرمد.
خلق الأنف وخلق الزكام.
خلق الثمرة وخلق العفن.

خلق الإنســان وخلق معــه جيشــا من الأعداء لاغـتيـاله : من بعوض، وديدان، وبلهـارسيا، وميكروبات، وسل وجـذام، وتيفود، وكـوليـرا. وخلق الـحياة وخلـق الحر والبـرد، والصـقـيع ورياح السـمـوم لم يرد بالدنيـا أن تكون دار سـلام.. وإنمـا دار حـرب وصراع وبلاء وشد وجذب وكر وفر.

لأنه علم بحكمـتـه أن حيـاتنا الدنيـوية إذا أخلدت إلى الراحـة والأمن والدعة والسلام ترهلت وضعفت وانقرضت.

وعلم الفسـيولوجيا يقـول لك إن سم الميكروب يحفـز النسيج إلى الاحتشاد.. كما تدفع لسعة البرد الدم إلى الشرايين.

إن العدوان المستمر الذى جعلتـه الطبيعة شريعتها فى الأرض أراده الله لمخلوقـاته تحديا مستمـرا.. ليشحذ كل مـخلوق وسائله ويبدع ويبـتكر ويحتـشد ويخـرج أحسن مـا يختزن مـن طاقات، ويكون دائما على أكمل الصور الممكنة.

وبدون هذا التناقض والصراع والكفاح كان مـصير الحياة إلى ضمور وتخاذل وتكاسل ثم انقـراض تدريجى.. وكما خلق لنا الله المرض خلق لنا الدواء فى عشب ينمـو تحت أقدامنا.. وفى شراب

فى الينابيـع التى تتـفـجر حـولنا فـى كل مكان.. وفى العناصـر الكثيرة تحت الأرض وفوقها.. وأمدنا بالعقل الذى يبحث وينقب.

وللحكمة ذاتها ألقى الله وسط الدول العربية المتخاذلة المترهلة بعدو شرس هو إسرائيل.. ومكن هذا الجسم الغريب ليكون حافزا إلى اليقظة والاحتشاد.

إسرائيل هى الميكروب.. هى التحـدى القائم فى الجسم العربى ليثبت حـيويته ويشـحذ طاقـاته ويهب من نومه الطويل وبرغم كل ظواهر اليأس فأنا متـفائل شديد الثقة بالمستـقبل فالسنن الكونية والقوانين الإلهية تعمل عملها فـى الكيان العربى ومانعيش فيه من كـــارثة أراها على الـعكس مظهـــرا من مظــاهر القـــانون الأزلى لتصحيح الأشياء.. إن خلافاتنا الداخلية وانقساماتنا الداخلية أشبه بالصديد الذى يتخلف فى الجراح من جـراء التهاب النسيج بالسم الميكروبى والأجـسام المضـــادة التى يفرزها. وهى مرحلة يليـها تدفق الدم من النســيج المحـتقن ليـغسل كل شىء ثم يعـقب ذلك الالتئام والشفاء.

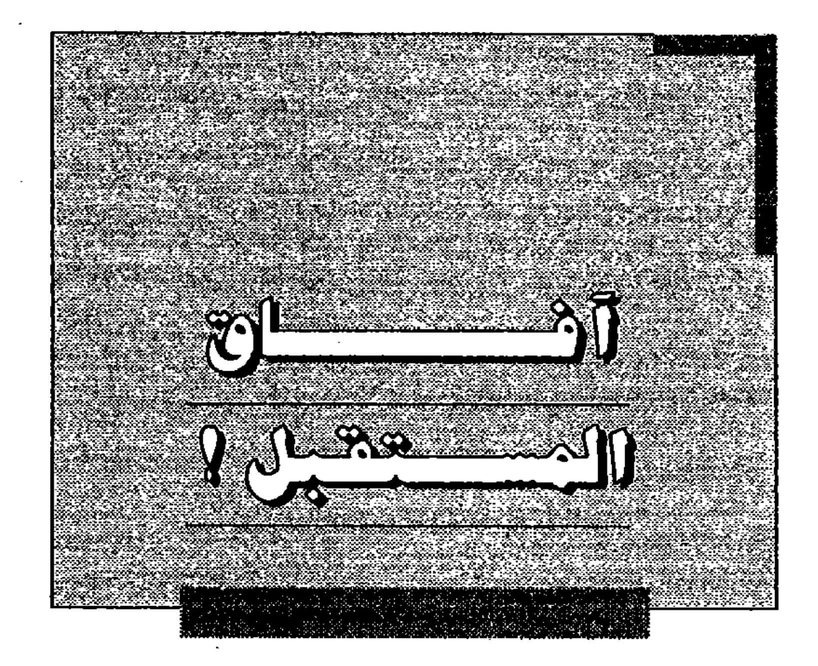
إن ألذى يجعل من واقعنا الحالى سببا لليأس لا يفهم الدنيا ولا يفهم التاريخ.

لقد تقاتلت الأمة الأمريكية قبل أن تتوحد فى حرب شرسة بين شمالها وجنوبها.. وكذلك الصين.. فلم يقل أحد إنها انتهت، أو إنها كتبت وثيقة فنائها.. بل العكس هو مـــا حدث.. فقد كتبت بهذا الدم ميلادها.

وفى الحساب الأزلى للأرباح والخسائر.. وفى سجل التاريخ.. لا تضـيع نقطة دم واحدة.. ولا تهـدر ضحـية.. وإنمـا لكل شىء دوره فى صياغة النصر النهائى.

والنصر دائما للحق والخير.


مـــاذا وراء
بوابة الموت
١١


آفـــاق
المســتقبل!

إن التاريخ يعلمنا درسا عظيما فى التواضع.. فمن الممكن أن ننقرض تماما ولا يبقى لجنسنا أثر.. وتتطور وتسود الحياة أجناس أخرى يخرج لها أحفاد وارثون عقلاء، وربما يكون السادة الجدد من نسل النمل أو النحل أو الصراصير.. ومن يدرى.. إن تاريخ الحياة يروى لنا حكاية سلالة عظيمة هائلة الحجم والقوة اسمها الديناصورات كان كل منها يمشى كأنه جبل يتحرك، وعاشت بدل السنة مائة مليون سنة تستمتع بهذه السيادة، ثم جاء العصر الجليدى فأهلكها لأنها لم تستطع التكيف.. لم تكن عندها وسيلة لرفع حرارة دمها سوى الجلوس فى الشمس.. وحينما طمر الجليد الأرض نفقت هذه السلالة الجهنمية كالكلاب.

ولم تترك أثرا لأنها لم تجد الشمس التى تتشمس فيها.

ونحن إلى الآن لم نعمر على الأرض مائة مليون سنة كما عمرت الديناصورات. وإنما عمرنا فقط مع التجاوز ومع ضم أقدميتنا القردية المزعومة عشرة ملايين سنة.. وقد تضخم عقلنا وذكاؤنا وتطورت أدواتنا. فأصبحت طائرات نفاثة وقنابل ذرية. فإذا لم نتقدم عاطفيا وإنسانيا بقدر ما تقدمنا عقليا.. إذا لم نستطع أن نكون محبين مشفقين رحماء بقدر ما نحن أقوياء، فسنهلك أنفسنا لا محالة.. ستهلكنا قوتنا نفسها فى حرب ذرية لا رحمة فيها.. ولن تأسى لنا الحياة.. فالحياة علمتنا أنها لا تعرف

الحزن ولا الندم وأن من يموت وينقرض من أبنائها عندها مليون مليون من يخلفه. وعندها من الحيل ما يفوق الأساطير.

وحينما نفنى تحت وابل الدمار الذرى سوف تهيل الحياة التراب فوقنا، ثم يمضى ركبها العظيم يتطور فى اتجاه آخر ليلقى إلى الأبدية بمحصول جديد من الخلائق، ولسان حالها يقول فلنجرب مرة أخرى.. إننا لسنا فى عجلة فأمامنا زمن لا نهائى نجرب فيه أمامنا الأبد كله لقد تقدمنا علميا بدرجة ملأتنا بالغرور، فها نحن نسافر إلى القمر ونرسل السفن الفضائية إلى المريخ ونصور جو الزهرة ولكننا لو تأملنا هذا التقدم العلمى لوجدناه يبعث على الحزن أكثر مما يبعث على الفرح.. إن الإنسان الذى خطا ربع مليون ميل فى الفضاء إلى القمر عجز عن خطوة طولها بضعة أمتار ليعاون زملاء له يموتون بالجوع فى الهند وآخرين يسحقهم الظلم فى القدس وفيتنام . وأمريكا تلتقى بروسيا على سطح القمر وتعجز عن أن تلتقى بها فى مجلس الأمن..

لقد اقتربت المسافات بين الكواكب والنجوم وازدادت المسافات بين الناس على الأرض بعدا !

ها نحن نتباعد عن بعضنا أكثر فأكثر كل يوم وكأننا شظايا تتناثر فى الفضاء ويعجز الواحد منا أن يسمع الآخر أو يوصل إليه رأيا أو يلقى له أذنا أو يفتح له قلبا. لقد بدأ الإنسان يسيطر على الكون، ولكنه مازال عاجزا عن السيطرة على نفسه! وبقدر ما ازدادت قوة ذراعيه بقدر ما نضبت الرحمة من قلبه.

إن إنسان القرن العشرين شمشون الجسد قدم على الأرض وقدم على القمر ولكنه قزم الروح مراهق العقل يمكن أن يدمر نفسه فى غرور دون أن يدرى.

إن الخروج إلى الفضاء الذى يبدو فى الظاهر معجزة علمية هو فى الحـقيـقة عـملية هروب نـفسـية من عـجز الإنسـان الروحى ومشكلاته الـمتفـاقمة على الأرض وهى عـملية هروب أنيـقة ولا شك.. وهى تثبت أن الإنسان مخادع ومـراوغ عبقرى يعرف كيْف يغطى عجزه بأثواب مادية ساطعة البريق.

ومـا نراه الآن حولـنا يدل على أن نمـو القوى المـادية أسـهل بكثير من نمو المحبة فى القلوب، والارتفاع إلى القمر أسهل بكثير من ارتفـاع الإنسان بـأخلاقـه ولو درجـة واحدة.. إننا نرى قـوة المادة وعجزها.

إن قوى الاقتـصاد لا تستطيع أن تصنع لنا الإنسـان الشريف النبيل مـهما تحالفت بدولاراتهـا.. وإنما الأخلاق تنمو بالمـجاهدة الشاقة بين القـوى الروحية العميقة فى داخـل الإنسان وبصراعه الدامى مع حـوافز الحـيوان ونـداء المعـدة وعواء الجنس وإغـراء القوة، وهى أمور شديدة الصعوبـة وتحتاج إلى درجات عالية من الإخلاص والصـدق مع النفس والمواجهـة اليومية والإلتـحام مع عـوامل الضـعف وإلحـاح اللذة والمكاسب السـهلة فى كل لحظة.. وهى حرب شـاقة تبدو إلى جـوارها عمليـة الصعود إلى القـمر.. عملية غـاية فى السهولة لأن عمليـة الصعود إلى القمر تعـتمدعلى النواميس الطبـيعية.. أمـثال الجاذبية.. وقـوى الدفع الصاروخى، وطاقـة احتراق الـغازات وهى جـميعـها سنن وقـوانين طبـيعـية وضـعـهـا الله فى ضـبط وإحكام، وهى لا تـخطىء أبدا لأن الله لا يخطىء فى حساباته.. أما علاقات الناس والسياسات الخارجية للدول فـتعـتمـد على المصـالح والأهواء والأطماع، وهى صنـاعة الإنسان التالفة ونتاج نفسه المعطوبة.

والهروب من تلك النفس وعطبهـا إلى فضاء الكون حيث يكون الاعتماد عـلى قوانين الله الدقيقة، هو الأمر المـأمون والسهل وهو أسـهل آلاف المرات من عـكوف الإنسان على نـفسـه ليـصلحـهـا ويقومها.. ولـكنه فى ذات الوقت هروب من رسالة الإنسان الأولى على الأرض فـواجب الإنسان الأول على هذه الأرض.. أن يعـرف نفسه ويقومها بالفكر وبالدين وبالعلم معا يصنع الإنسان نفسه.. أما بالعلم المادى وحـده وبدون إيمان وبدون خلق فلن يصنع من نفـسه إلا جـبارا ومـسخـا عمـلاقا مـشوهـا يتنقل بين الكواكب ويختـرع أسلحة بشعـة رهيبة للقـتل الجماعى يدمـر بها الكل ثم يدمر بها نفسه دون أن يدرى.

وقد أختارت مدنية القـرن العشرين هذا الطريق السهل للتطور طريق الذرة والطاقـة والكهـرباء والـحديـد والصلب والديناميـت ونبذت البـاقى معـتذرة بأنه غيـبيـات، مع أن العلم المادى نفـسه غارق فى الغيبيات. فـما هى الكهرباء؟ وما هو الإلكترون؟ وما هى الطاقة؟ كلهـا غيبـيات، نحن نستخـدم الكهرباء ولا نعرف كنهـها ونصنع الأجهـزة الإلكترونية ولا نعرف مـا هو الإلكترون، ونطلق المـوجة اللاسلكيـة ولا نعرف مـا هى الموجـة اللاسلكيـة ولا ما شكلها.. الـعلم المادى لا يعرف مـا هية أى شـىء إنه فـقط يعرف العلاقات والكمـيات والقوانين، ولكنه يجـهل ما هية أى شـىء.. إن حكاية الغيبيات هى العذر الكاذب الجاهز.

أما الحـقيـقة.. فـهى أن الإنسان قـد آثر الطريق السهل حـيث لا يحتاج إلى مواجهة نفسه والإلتـحام معها فى جهاد عظيم مرير فى سبيل إعادة خلقها.

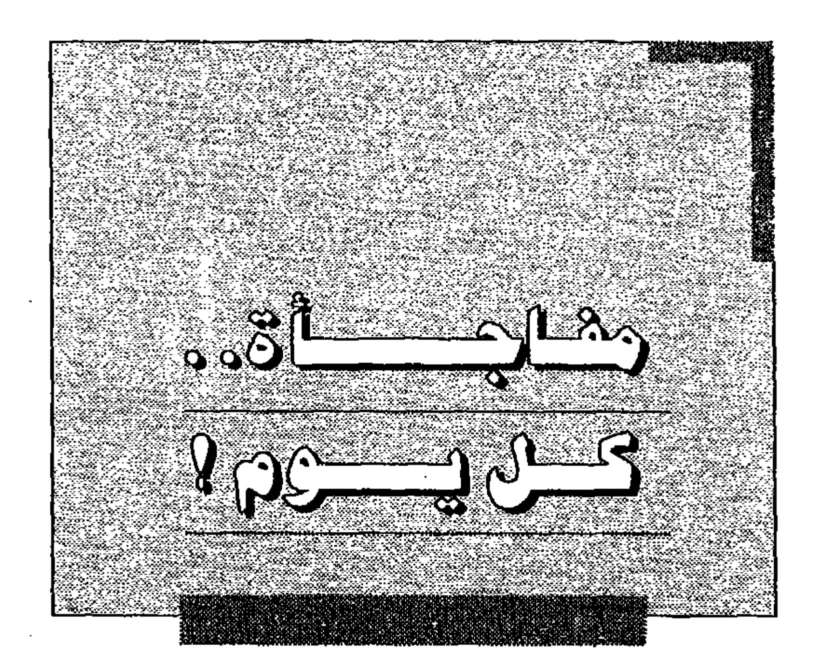
آثر أن يلقى بنفسه فى البـيئة المادية محاولا تغـييرها بدلا من أن يبدأ من نقطة الأساس.

وهو يطمئن نفســه بأنه إذا تغيرت البيـئة حوله فسوف تتـغير نفسه وتـسمو من تلقاء ذاتهـا.. إنها تجربة كبـرى سوف يجاوب عليها التـاريخ وسوف يكذبها بل لعله قد بدأ يجاوب بالفـعل.. فها نحن نرى فى الناحـية المادية أفـاق المستـقبل تبـدو كلها وردية مشـرقة. فـهاهو الإنسـان قد وصل إلى الـقمر.. أمـا فى الناحـية الإنسانيـة فإن آفاق المسـتقبل تبدو مـحفوفة بالظلال والمـخاطر والأشواك.

لقـد بدأ نهـــار العلم وأخـشى أن أقـول.. بدأ ليـل الإنسـانيـة ومخاضـها القاسـى المرعب إن مصيرنا معلق بشىء اسمه.. عقلنا.. وما ســوف يشير به علينا.. ومـا سوف يفعله لـيتكيف مع وضـع القـوة الجـديدة الذى وضـعنا أنفـسنا فـيـه وإذا أردنا أن نعـرف ما سوف تنتهى إليه خيوط المـأساة التى نغزلها. فلابد أن نعرف مزيدا عن ذلك اللغز الذى اسمه العقل.

مـــاذا وراء
بوابة الموت





عمـر الإنسـان على الأرض أكثـر من مليون سنة.. ربما عشرة ملايين من السنين.. وآثاره ومخلفاته فى الكهـوف تدل على أنه اكـتشف النـار وطهى طعامـه وأشـعل سـراجـه منذ أكـثـر من ثلاثـين ألف سنة. وكانت النـار أول مفتـاح عرفـه من مفاتيـح الطاقة. اكتشـفها مصادفـة من انقداح الشرر حينما كـان يضرب الحصى ببعـضه البعض ثم مـرت أكثر من ٢٠ الف سنة أخـرى، ثم عرف الكتابة بالقلم، والتقويم الشمسى وتعاقب الفصول ورصد النجوم والزراعة.. وبدأ الاستقرار وبدأت الحضارة.

ثم ألوف أخرى من السنين واكتـشف صناعة الورق والبوصلة والملاحـة ثم اخترع العجلة والعـربة الحربية والبـارود.. ثم ألوفا أخرى من السنين واكـتشف البتـرول والبخار ثم بضع مـئات من السنين واكتشف الكهرباء.

ثم بضع عـشرات من السنين واكـتشف الذرة والطاقـة الذرية والالكترون.. واللاسلكى.. والراديو.

ثم أسرعت عـجلة التطور وأصبح التقدم العلمى يقـفز من سنة لأخرى.. الليـزر.. التليفـزيون.. الكومبـيوتر.. الهندسـة الوراثية.. السفر إلى القمر والمـريخ والزهرة والمشترى وزحل وأورانوس.. ثم الخروج من المجموعة الشمسية إلى أعماق الكون.

لوحة مـفاتيح الطاقـة أصبحت تحـتوى على أكـثر من مفـتاح وأكثر من بديل.

النار.. والفـحم.. والبـترول.. والـبخـار.. والكهـرباء.. والذرة.. والليزر.. والميكرويف.. والطاقة الشمسية.. وحرارة باطن الأرض. وطاقة أمواج البحر.. والطاقة الكيميائية.

ثم أصبح كل شهر يحمل مفاجأة.

ثم كل أسبوع

ثم كل يوم.

وتعددت مجالات الاختراع.

واتسعت أفاق الاكتشاف.

وتسـارعت خطوات العلم.. وتحـولت إلى إيقـاع لاهث مهـرول وتطلعت العـقول إلى أكبـر طاقة.. الطاقـة التى تمسك النـجوم فى أفلاكها وتدفع بالكواكب فى مداراتها فى تسارع مذهل.

إن أى قـمر صناعـى يلقى به إلى الفـضاء يدور حـول الأرض بسرعة أربعين ألفا إلى سـتين ألف ميل فـى السـاعة بدون أى نوع من الوقود وبدون أى نوع من المحـركات وبدون أى دفع نفاث أو غير نفاث.

الطاقـة التى تدفـعـه هى طاقة الجـذب الكونى بيـن الأجسـام (GRAVITY FIELD ENERGY) ثلاث دول عاكفة الآن علـى تسخير هذه الطاقة.. هـى أمريكا وروسـيا وإسـرائيل.

أقـوى وأرخص طاقة فى الـكون.. من يسبق إلى أمـتـلاكهـا.. سوف تكون له السيادة فى هذا العصر.

هذه الطاقـة هى التى تحـرك الأطباق الـطائرة.. إذا صدق أنهـا حقيقة وأنهـا تأتى إلينا من أطراف بعيدة مسكونة من الكون. ومن

يمتلكها سوف يستطيع الفرار من قبضة الأرض ليتجول حرا فى أرجاء الكون بسرعات لا تخطر على بال أحد.. وبدون وقود.

أما الجبهة الثانية من جبهات العلم التى سوف تحمل أكبر المفاجآت فهى الهندسة الوراثية.

وإذا قدر لعقل إن يفض شفرة الجينات ويكشف سر تواليفها فسيكون بإمكانه استنباط مخلوقات جديدة فى عالم النبات والحيوان والإنسان، وسوف يتحكم فى السلالات وفى أشكالها وأوصافها.

وهو طموح بعيد وغير محتمل.. لأن الجينات الموجودة فى خلية واحدة لكائن واحد تحتاج لعشرات السنين لحصرها وكشف أسرارها وعلاقاتها بافتراض إتاحة كل إمكانيات السوبر كومبيوتر والحاسبات الإلكترونية الموجودة.

وما يحدث الآن هو مجرد التجريب والعبث واللعب والتشريح العشوائى لهذه الجينات.

ومع ذلك فقد استطعنا من خلال هذا التجريب تسخير الميكروبات الدنيئة لصناعة الأنسولين.. واستطعنا تخليق سلالات جديدة من النبات والثمار والحبوب.. تقاوم الأمراض والجفاف وتنمو فى غير بيئاتها وتتحمل الملوحة العالية.. وهناك الجديد كل يوم فى الطريق.. وهذا النجاح أطلق غرور العلماء.. وآثار خيالهم.

وهم يحاولون الآن تخليق العبقرية فى أنبوبة اختبار.. وصناعة بيتهوفن من بويضة مخصبة بتلقيح صناعى.. وتركيب أينشتين تحت الميكروسكوب.

ولن يخرج من الأنبوبة أينشتين ولكن فرنكشتين.

ولن يخرج من البويضة المخصبة بيتهوفن وإنما المسيخ الدجال.

ومن يدرى ربما خرجت سلالة إبليسية.. أو مخلوقات أسوأ من يأجوج ومأجوج.. أو مسوخ ومردة لا يعلم بها إلا الله.

ونجاح العلماء فى تعديل سلالة خلية بكتيرية أو ثمرة بسلة.. لا يعنى تخليق شكسبير فى أنبوبة اختبار.. فبين خلية البكتيريا وخلية شكسبير ثلاثة آلاف مليون سنة فى سلم التطور.. وهى مسافة زمنية لا يمكن اختصارها إلى ثلاث دقائق !

ولكن العلم لا يعرف مستحيلا.

والعلماء فى عصرنا المادى لا يعرفون إلها ولا حدودا أخلاقية للبحث والتجريب.. ويرون فى أنفسهم أنصاف آلهة.. والسباق الأنانى بين الدول قد أصاب الكل بالدوار.. وكل شىء أصبح جائزا وممكنا ومباحا.

وموازيا لتلك الرحلة السريعة الإيقاع فى عالم الآفاق.. هناك رحلة أخرى أخطر وأعجب فى داخل النفس البشرية يقوم بها علماء من نوع آخر هم علماء الباراسيكولوجى.

ومنذ أن اكتشف الطبيب النمساوى فرانز أنطوان مسمر التنويم المغنطيسى منذ مائتين وأربعين عاما.. وهناك جيل جديد من علماء الباراسيكولوجى عاكفون على البحث والتجريب فى أعماق النفس وقواها الغامضة.

ظواهر نفسية مثل.. الحسد والتخاطر والجلاء البصرى والجلاء السمعى وأحلام التنبؤ واستشعار الخطر والقدرة على هزيمة المرض بالإرادة.. كل تلك الظواهر وغيرها كانت محل دراسة وتجربة وبحوث.

وحاليا هناك سباق بين مخابرات روسيا ومخابرات أمريكا على تجارب القتل النفسى عن بعد عن طريق التركيز وإرسال

شحن نفسية شريرة عدوانية للضحية المطلوب إيذاؤها.

وهو إحياء للسحر الأسود المعروف فى أفريقيا باسم الفودو.

هذه الرصاصة النفسية.

أو القنبلة العقلية.

هى آخر ما يجرى فى الخفاء من أسرار البحوث النفسية. وهى علوم لن تكون لها ثمرة إلا الشر المطلق. ولن تنجب إلا شياطين وسحرة.. ومردة جدد يقتلون بعضهم بعضا بأسلحة غير منظورة.

وما تفعله العين الحاسدة تلقائيا هو نوع من هذه الشرور أما صناعة الحسد فى المعمل وتربية الإرادة الشريرة وترويضها واستخدامها فهو شر أسوأ.

وإن أفلح هولاء العلماء فى ترويض تلك المواهب المرذولة واستخدامها.. فستكون البداية لعصر جديد من الجرائم الخفية والكاملة التى لا يمكن لأى شرطة ضبطها.. وبداية لسلالة بشرية أشبه بسلالة الجن الأبالسة تتخصص فى الشر والأذى والجريمة الخالصة.

ولا أحسب أن الله يفتح لهم فى هذا الباب إلا إذا كانت القيامة على الأبواب.

وإلى جوار هؤلاء العلماء، هناك علماء آخرون أفضل يبحثون فى مسائل الشفاء بالإرادة وهزيمة الأمراض المستعصية كالسرطان بإيقاظ قوى الحياة فى النفس عن طريق الابتهال والعبادة والدعاء.

والبعض يستخدم علوم اليوجا والثيوصوفى والتأمل والاسترخاء والتركيز وجمع الهمة.

والمستقبل يحمل جنين كل هذه الإمكانات بخيرها وشرها.

والغـد يحمل لنا كل تلك الأهـوال.. وكل تلك البشـائر ولا نعلم أيها سوف يسبق الآخر.

ولكنها جميعا في الطريق.

وفي السنوات العـشر القـادمة سـوف تشـهد الـبشرية مـا لم تشهده في كل تاريخها القديم والحديث.

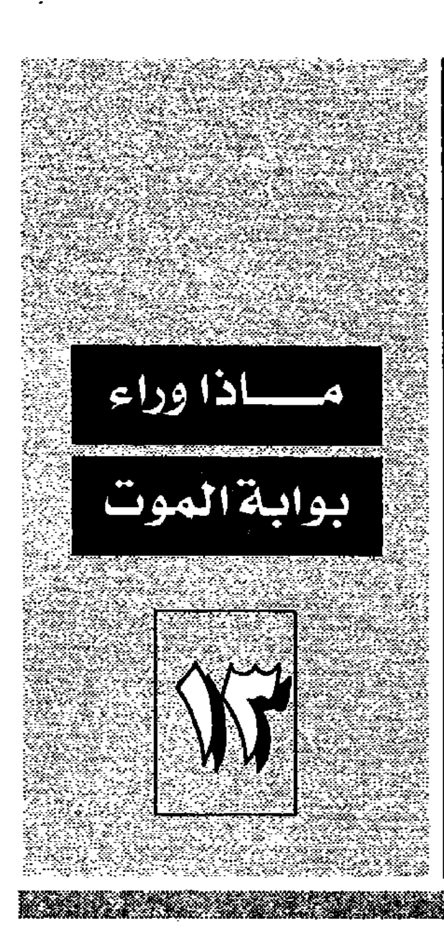
وسوف يحـمل لنا التلكس أخـبار الاخـتراعات والكـشوف كل ساعة زمـان لا نعلم من سيسـبق.. أخبار السيـاسة والحروب، أم أخبـار العلوم والكشـوف؟. وأى علوم ستـسبق.. علوم الخـير أم علوم الشر؟!..

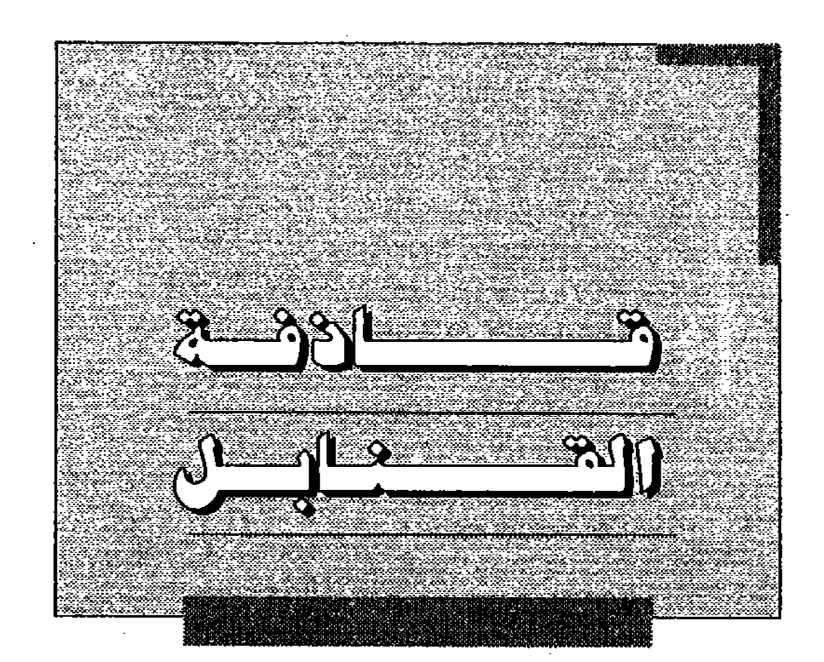
وأظن أن الله سيعاملنا بنياتنا وقلوبنا.

وحسب ما نضمر سنكون.

ولن يظلمنا ربنا وإنمـا كالعادة نحن الذين سـوف نظلم أنفسنا والعلم سـلاح محـايد.. إنه كالسكين يمكن أن تـقشر بـها تفـاحة لتقديمها لصاحبك.. أو تقطع بها رقبته.

والأمر يتوقف على نصيبك من الحكمة والأخلاق والدين وأدعو الله.. أن تتغلب الحكمة.


مـــاذا وراء
بوابة الموت
١٣


قـــــاذفة
القـــنابـل

منذ ثلاثمائة مليون سنة.. قبل أن يجىء إلى الدنيا شىء اسمه إنسان.. والأرض مازالت على بكارتها غابة لم يشقها محراث.. ولد للحياة حفيد جديد رقيق الجسم اسمه.. الحشرة.

وكان مقدرا لهذا الحفيد أن تكون سلالته المباركة أكثر مصنفات الحيوانات عددا وعدة.. وأن يكون أذكى من الديناصور العظيم وأوسع حيلة من ثعلب الجبل، وأقدر على مواجهة صعوبات الحياة من ضوارى الغاب.

وحينما زحف الثلج وغطى الأرض فى العصر الجليدى وحول المحيطات.. إلى جماد.. ماتت الديناصورات العظيمة وانقرضت الزاحفات واحدة بعد أخرى.. وبقيت الحشرة تقاوم مكومة فى الثلج وقد أغمضت عينيها فى بيات شتوى طويل لا تأكل ولا تتنفس.

وأشرقت الشمس ذات يوم لتدفىء الدنيا.

وذاب الجليد.

وخرجت الحشرات بالألوف والملايين من خنادقها.. وكأنها يأجوج ومأجوج.. لتغزو الماء واليابسة والصحارى الجرد والهواء.. بعضها يأكل بعضا.. وبعضها يتطفل على الحياة الأخرى من نبات وحيوان.. وبعضها يتغذى على الطين وبعضها يأكل الروث.. وبعضها يعيش على ملح المستنقعات وبعضا يمتص الدم.

وإنها لقادرة دائما على التكيف على أى طعام موجود.

وبيننا اليوم حشرات عجيبة تأكل أنواعا عجيبة من الأطعمة مثل ذبابة البترول التى تعيش فى أحواض البترول.. وذبابة التحنيط التى تعيش على أملاح تحنيط الجثث.. وخنفساء الدائرة الكهربائية التى تعيش على أسلاك الرصاص.. وجنادب الينابيع الكبريتية الحارة.

والجعارين التى تأكل العظام.

وكل حشرة تتحرك مثل عربة مصفحة تحيط بجسمها الرقيق صفائح من مادة كالصلب اسمها الكيتين تقاوم فعل جميع المهلكات الكيميائية .. وهى تسلح نفسها بحراب وخناجر وأشواك.. وبعضها يسلح نفسه بحويصلة من السم متصلة بإبرة حامية «الزبان» يطعن بها أى عدو يقترب منه فيشله ثم يلتهمه.. وبعضها يتلون بلون البيئة كفرس النبى الأخضر بلون الخضرة والجرادة الصفراء بلون الرمال.. وبعضها يلصق على نفسه أوراق الشجر الميتة كما يفعل جندى الصاعقة وهو يزحف.. وبعضها يطلق غازات كريهة ليطرد أعداءه.. وبعضها يحفر لنفسه خنادق ليختبيء.. وبعضها يبنى لنفسه قلاعا حصينة من الطين.. وبعضها يحاكى فى هيئته الزنابير اللاسعة بدون أن يكون له زبان ليضحك على مطارديه.

والحشرات تتحمل درجات البرودة القصوى تحت الصفر فتتجمد ولا تموت كما تتحمل الحرارة العليا كما تعيش تحت الضغط الجوى المنخفض وتحت ضغوط البحر العالية تحت الماء.. وفى الفراغ.. وفى غياب الأكسجين.. وفى وجود الغازات السامة.

وكل حشرة تعيش فى أكثر من بيئة فالبعوضة فى مرحلة الدودة والشرنقة تعيش فى المستنقعات، وفى مرحلة الحشرة

الكاملة تعـيش فى الحـدائق وتتـغذى ذكـورها على رحـيق الزهر وإناثها على دم الإنسان.

والحشرات تسمع وتحس وتشم وترى أحيانا عن طريق قرون الاستشعار أو الوبر الخفيف على جـسمها، وبعضها له طبلة أذن.. وبعضها له عيون مركبة.

والمعجزة التى استطاعت بها الحشرات أن تهزم الموت والفناء وضراوة الظروف المهلكة.. هى معجزة النسل.

فحـشرة دودة القطن تبـيض فى اللطعـة الواحدة ٤٠٠ بيـضة تفقس ٢٨٠ أنثى و ٢٠٠ ذكر وكل أنثى تعود فتبيض ٤٠٠ بيضة وبعملية حسابية سوف نكتشف أن الحشرة تتضاعف ثمانين ألف حشرة بهذه الطريقة ثم ١٦ مليونا. كل هذا من حشرة واحدة وفى خلال زمن يعد بالأيام.

وذبابة الدروسوفيلا مثلا تنتج ٢٥ جيلا فى السنة ويبدأ الجيل الأول بمـائة بيضـة وبعـملية حـسابيـة بسـيطة يتضح أن العـدد النهـائى فى الجيل الخـامس والعشـرين يبلغ من العظم بحـيث لو تراصت ذباباته الواحـدة إلى جوار الأخـرى يتكون جسـر يوصل من الأرض للشمس.

وأعجب ما فى الحشرة ما يسمى بالمـعرفة الغريزية.. فحشرة أبى دقيق تختار أوراق الكرنب لتبيض عليها مع أنها لا تتغذى على الكرنب ولا تحتاج له وإنما تقودها إلى ذلك معرفة غريزية باطنة.. فالبيض سوف يفقس وسوف تخرج ديدان صغيرة لا تأكل سوى الكرنب فيجب أن تبيض حشـرة أبى دقيق على ورق الكرنب ليجد الصـغار مـا يأكلونه ومع ذلك فـحشـرة أبى دقيق لا تعـرف هذه المسألة معرفة عقلية واعية.

وحتى لو رأت الصغار التى فقس عنها بيضها فهى لن تعرفها.. ولن تعرف أن هذه الديدان أبناؤها.

إن كل العملية تتم بدون وعى وبإملاء من قوة مـجهولة اسمها الغـريزة، وزنبور الطيـن يصطاد الدودة ثم يبيض عـليهـا بيضـة واحدة ثم يضـعها فى العش ويمـضى باحثا عن حصـاه حتى إذا وجدها حملها بين ذراعيه وأغلق باب العش.

وتفقس البيضة لتجد اليرقة الصغيرة طعامها جاهزا بين يديها.

كيف أدرك الزنبور هذه الحاجة المسبقة فاحتاط لها.

والبعوضة التى تضع بيضها على سطح الماء فتزود كل بيضة بكيسـين من الهواء تطـفو بهمـا على السطح.. هل تعـرف قوانين ارشميدس؟

والحشـرة التى يسمـونها فى علم الحـشرات «قاذقـة القنابل» والتى تتمخطر أمام الحيوانات المـفترسة دون خوف حتى إذا فتح أحدها فمـه ليتلهمهـا ضغطت على كيس فى بطنها فـامتزجت فى لحظة إفرازات ثلاث غدد تحـتوى على مادة الهيـدروكينون وفوق أكسـيد الهـيدروجين وأنزيم خـاص، ويؤدى اختـلاط الثلاثة إلى تفـاعل شديد وخـروج غاز لاسع كـريه الرائحة فـيفـر الحيـوان المفترس رعبا.

هل أخذت هذه الحشرة دبلوم الكيمياء من كامبريدج.

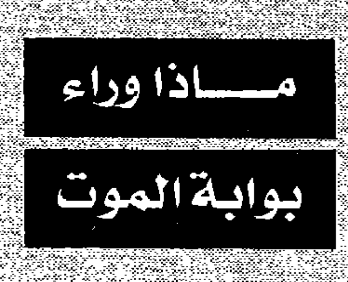
والحشرات التى تنصب الفخاخ من خيوط الحرير.

والحـبـاحب التى تضىء بالليل لتـجـذب البـعـوض ثم تأكله.. وحشرات الماء التى تسبح فى الماء بأذرع كالمجاديف وتطير فى الهواء بأذرع مجنحة والحشرات التى تغنى لتنادى على ذكورها.

لا شك أن هناك عقلا كليا خلق مـخلوقاته وخطط لها وهو يعلم من الغيب ما لا تعلم.

إن الحديث ليطول ويحلو.

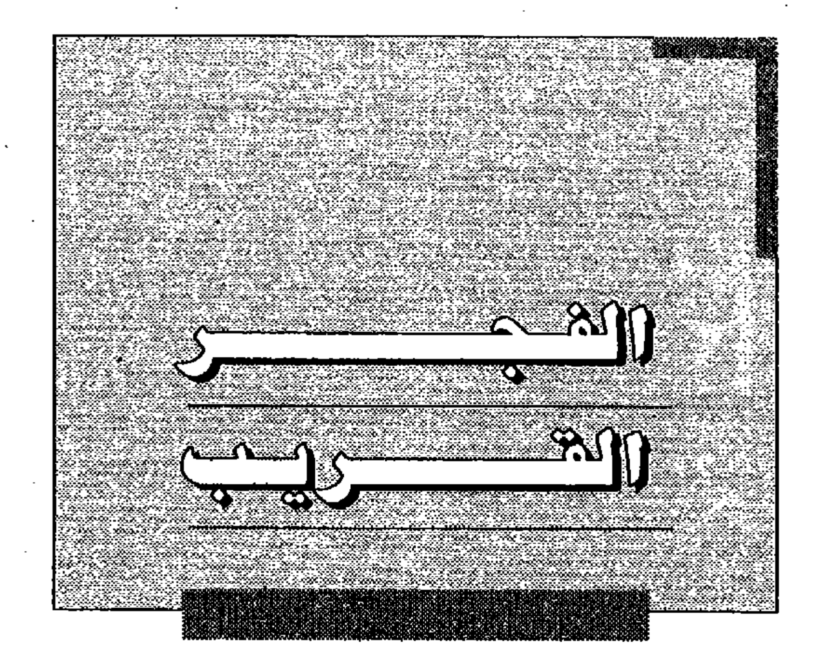
والموضوع يزداد غرابة كلما أوغلنا فيه.



مــــاذا وراء
بوابة الموت



١٤



الفجــــر
القـــريب

لم يحدث فى التاريخ أن جاء عصر بمثل هذه الوفرة والغنى والترف المادى والأدوات التكنولوجية التى تسهل الحياة على المواطن.. وقد رأينا أمهاتنا فى الماضى القريب يغسلن ويكنسن ويطبخن ويخبزن ويعجن ويرضعن أطفالهن.. واليوم الغسالة الاتوماتيكية والمكنسة الكهربائية والوجبات الجاهزة والمخبز الآلى والألبان الصناعية تؤدى عن المرأة كل هذه الوظائف.. وبضغطة على زر يستحضر المشاهد فى لحظة فرقا استعراضية من كل أنحاء العالم ترقص وتغنى له.. وهو يستطيع أن يصل إلى أقصى أطراف المعمورة فى ساعات بالطيران النفاث.

وهو يستطيع أن ينزل إلى أعماق البحر وأن يرتاد الفضاء، وهو يستطيع أن يوظف العلم لتخضير الصحارى ولزرع الأجنة فى الأنابيب ونقل قلوب الموتى إلى صدور الأحياء وعلاج العقم وهزيمة السرطان، وهو يستطيع أن يستحدث محاصيل جديدة ويضاعف من المحاصيل القديمة.. والانتاج الزراعى وصل أحيانا إلى درجة من الوفرة أدت بالمنتجين إلى إلقائه فى البحر حتى لا ينخفض سعره.

والطاقة الذرية والطاقة الشمسية والإلكترونيات والليزر والأمواج فوق الصوتية فتحت مغاليق أسرارها للإنسان.. والفلاح المعدم الأجير وصلت يوميته فى مصر إلى عشرة جنيهات

وأصـبح عـملة نادرة عـزيزة، ومـثله النجـار والحـداد والنقـاش والسباك وهى حرف سهلة لا تحتاج إلى أكثر من شهور لإتقانها.. وعائدات النـفط الوفيرة من الـعملة الصعـبة انتـقلت بدول الخليج وإيران بقـفـزات حضـارية لاهثـة لتـجـعلها فى مـصـاف الدول الأوروبية.

وكـان المـفـروض أن تؤدى هذه الوفـرة والغنى والسـهـولة بالإنسـان إلى السعـادة.. ولكن ما حـدث كان العكس.. فـقد ازداد الإنسان بهـذه الوفرة المـادية تعاسـة وارتفعت معـدلات الجنون والانتـحار والأمـراض النفسـيـة فى العالم كله.. وازدادت الأسـر تفككا وازداد الناس بعدا عن بعضـهم البعض وانعدم التواصل بين الزوج وزوجته والأخ وأخيـه والأب وابنه.. وأصبح الناس كالجزر التائهة الشـاردة لا يكاد يجمعها رابط.

وشـهدنا عـشـرات الحـروب وسقط آلاف الـقتلى واشـتـعلت الحرائق فى كل مكان وأصبح الإرهاب والقتل العشوائى والعبوات الناسفة والسيارات الملغومة والقصف الأعمى ظواهر عادية.

وانقلبت النعـمة التى بين أيدينا إلـى نقمة.. وبـدقة أكثـر نحن الذين قلبنا هذه النعمة إلى نقمة فنحن ننـفق أكثر من ستمائة ألف مليون دولار سنويا على السـلاح وعلى أدوات القتل.. ونحن لوثنا الهواء والبحـار والأنهار والزروع بالفضلات والعوادم والمـبيدات ونحن رصدنا الأموال فى كل مكان لتطوير أسلحة الموت والدمار.

ونحن فى كل مكان نجـتـمع ولا نتفق ونـتصـافح ويطوى كل واحد قلـبه على ضغـينة وقد أعلن كـل واحد منا من نفـسه دولة مستقلة ذات سـيادة وأصبحنا نتصادم كل يـوم بعدد الستة آلاف مليون فرد من ساكنى هذا الكوكب.

إن المــادة والوفرة لم تقـربنا بل فــجرت فـينا حب المصلحـة وحب الاكتناز والرغبة فى الجمع وفجرت الـ «أنا الوضيع» النفس الأمارة الحيوانية الشــهوانية التى ترغب بلا نهاية. وأصبح كل منا مجرد جوع لا يشبع.

وتحول هذا الـ «أنا الوضـيع» إلى جدار غليظ صـفـيق يفرقنا.. ولم يعـد كل منا يسمع إلا نفـسه.. وتحـول الحوار إلى كـلام من طرف واحد لأن الآخر لا يسمع.

كيف نعلو على هذا الـ «أنا» ونتجاوزها إلى المرتقى الأعلى من نفوسنا.

هذه هى المشكلة؟

كيف نتـخطى المصلحـة الشـخصـية إلى القيـم الأعلى والمثل الأشمل.

إن التدين الشكلى.. والإيمان باللـسان.. والخلق المظهرى ليس حــلا وإنما المطلوب هو إيمــان تذوق وتشــرب ومبـادىء تمتـزج بالشــغاف واقـتناع يصل إلى مـركز الشــعور واعـتناق يصل إلى نخاع العظم.

المطلوب تديـن يصل إلى ذروة الأزمــة الوجـودية التى تغـيـر صاحبها وتصهره لتخرج به من حيوانيته إلى إنسانيته.

ويبدو أن العــالم كله صائر إلى هذه الأزمــة الوجودية ومـقبل على هذه المخاض المؤلم.. إن المرحـلة الروحانية القادمة لن تولد إلا من خلال الفشل المادى.. والإسلام الحقيقى لن يولد من مجرد شكليات صـورية مثل اطلاق اللحـية أو تقصـير الثـوب وإنما من محنة عـالمية وهائلة تصـهر الناس فى أتون العذاب حـتى تتطهر معادنهم وتذوب غشاواتهم وتتفتح بصائرهم.

وما نـحن فيه الآن مـن ضنك واحبـاط وتعب هو الليل المظلم المدلهم الذى يسبق الفجر.

وربمـا اشتـد الظلام فى المـستـقـبل القريـب وربما ادلهـمت الكوارث أكثر وأكثر وربما فاتتنا شهود الفجر وقصرت أعمارنا عن بلوغه. ولكنه قادم.. وحسب كل منا نصيبـا أن يسهر على معركته الخاصة الفاصلة ليتعجل ميلاد الفجر فى نفسه هو أولا من خلال محنته هو وعـذابه هو ومن خلال أزمته الوجودية الخـاصة.. ففى داخل كل منا معـركة مع نفسه الأمـارة ومع الـ «أنا الوضيع» فى داخله.. ومع شهـواته ومصالحه.. عليـه أن ينتصر فيـها أولا.. إذا أراد لمسيرة النور أن تهزم جـحافل الظلام التى تجثم على العالم من جميع أقطاره.

عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم.

على كل إنســان أن يعلن الثـورة على نفـسه أولا وأن يـعتـقل شياطينه وأن يغـير سلوكه وأن يجعل من نفسه مـثالا وقدوة قبل أن يطالب الآخرين بأن يبدلوا من سلوكهم.

وقد يطول المشوار ولكن سلامة الوصول أكيدة.

أما التـغيـير التـعسفى عن طـريق قلب نظم الحكم وعن طريق العنف القهرى فـقد يبدو لأول وهلة أنه يقصر المشـوار ويختصر التاريخ ولكن مـا يحدث هو العكس.. إنه يطيل أمـد المحنة ويعطل التاريخ ويستـبدل الظلم القديم بظلم جديد ولا يغير نـفوسا وإنما يغير كراسى وبطاقات.

إن نفوسنا هى الـمعاقل الأولى للثـورة والتغيـير وترويضــها وقيادتها هى المنطلق لقيادة أى شىء وليـست شقشقة الشعارات وطنطنة الهـتافات فليـعتكف كل منا على نفســه يروضـها ويربيـها

ويزكـيها ويكـافحهـا فذلك هو الـجهاد الأكـبر الذى صنع الـفرد المؤمن.. ومن الفـرد تنمو العائلة والمـجتمع والأمـة والتاريخ ولا يأس من طول الطريق.. فإنـما أول الغيث قطرة ومـعظم النار تبدأ من مجرد شرارة.. وذلك هو المراد حينما يقول لنا القرآن ﴿**إن الله لا يغـير ما بقـوم حتى يـغيروا مـا بأنفســهم**﴾. فذلك إذن هو منطلق التغيير.

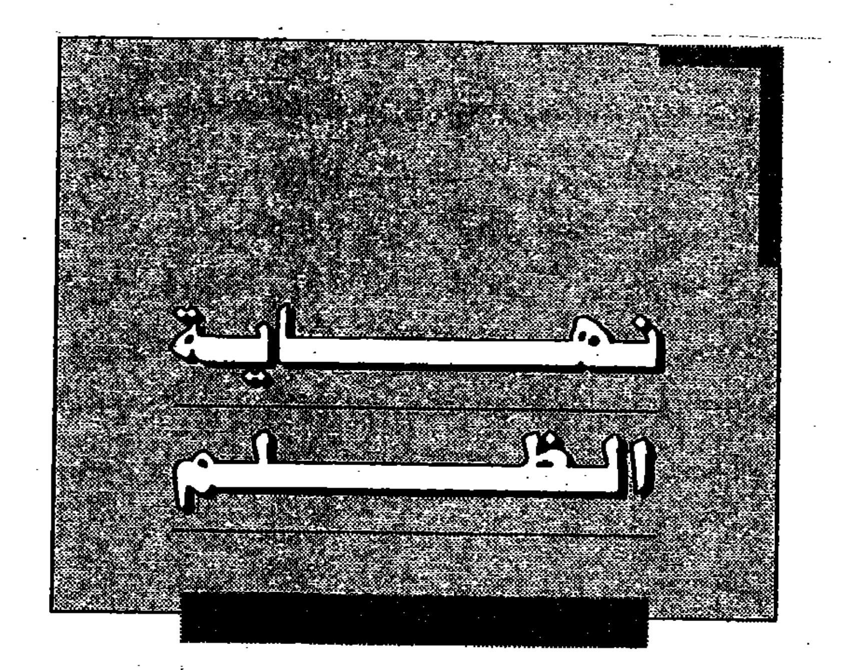
أن أغير ما بنفسى.

وأن تغير ما بنفسك.

وأن تشرق شمسنا أولا من داخلنا.

وذلك كلام قديم جدا.. بدأ من أيام سقراط!!


ماذا وراء
بوابة الموت
١٥


نهاية
الظلم

المشهد في أوروبا الآن لما يحدث في كوسوفو هو للأسف تكرار ممل لما حدث في البوسنة والهرسك ولما حدث في الشيشان ولما حدث في بورما ولما حدث في الفلبين وهو تكرار بطيء لماحدث في أسبانيا بعد سقوط الدولة الإسلامية ومسلسل المذابح للفلول الهاربة الناجين بأنفسهم من الصلب والحرق .

وحلف الأطلنطي لا يملك إلا أن يغطي حمرة الخجل التي كست وجهه بتهديدات شفوية للسفاح ميلوسوفيتش يعقبها بالمهلة تلو المهلة حتى يشبع من التمثيل بضحيته وحتى يسلم آخر طفل إلى غول البرد والجوع عند حافة الجبل .

والأطفال اللقطاء يباعون في أوروبا لعصابات دعارة الأطفال وللتنصير ولأهداف أخرى .

وتكريس الظلم هو الحقيقة الوحيدة العارية التي تصفع الوجه الإنساني لهذا العصر الذي يتحدث عن تطهير البيئة وإنقاذ الحيوانات من الإنقراض وثقب الأوزون وينسى أن النوع الإنساني نفسه أصبح مهددا بالانقراض .. وأن الرحمة أصبحت حفرية بائدة .. وأن الدين عند ادعياء التدين هو تصنيع قنبلة لنسف الطرف الآخر .. أو القتل غيابيا كما يحدث في الجزائر .

وأسال متعجبا ..

لماذا تعجبون يا إخوانى إذا نبح الكلب أو عض الذئب أو نهشت الضباع الرمم .. ألم يخلق الله لذاك نابا وأنبت لذاك ضرسا وصنع لذاك طاحونة تطحن الرمم .. ألم يجعل فى هذا الغذاء طعاما وقوتا وصحة لهذه الوحوش .

إنى لأجد المعنى في الغابة .. ولا أجده فى المدينة التى نسكنها.

إنى أجد السلام والأمن فى الغابة فلن ينفجر لغم تحت قدمى ولن تسقط على رأسى قنبلة عنقودية .

وعجبت للرئيس ياسر عرفات يمد يده ليصافح شارون فلا يحرك هذا ساكنا ولا يلتفت إليه .. كيف وجد ياسر عرفات فى نفسه الرغبة ليصافحه .. وكيف تتحرك الأيدى للسلام بدون سلام .. ولم أشهد بطول المفاوضات مع اليهود سلاما .. وما شهدت إلا كبرا وعنادا وصلفا واستكبارا وتصلبا ونفورا .

السلام لين وانقياد وسلاسة .. ورغم الاتفاقات التى وقعت .. فإنى لم أر للسلام ظلا ولم أشهد له ريحا فى واى بلانتيشن .

إنما هى تمثيلية سوف يعقبها اشتباك فى أول منعطف طريق .

نحن فى حاجة إلى إطلالة بطل .. إلى روح البطولة الجامعة .

نحن فى حاجة إلى صلاح الدين .

إنهم يطاردون الأكراد فى كل مكان خوفا من أن يبعث فيهم صلاح الدين من جديد .

إن معجزة صلاح الدين كانت فى روحه الجامعة التى جمعت الأشلاء العربية على إرادة واحدة .. إنهم استأنسوا الطالبانى والبرزانى وبقى أوجلان .. ولن يغمض لهم جفن وهو حى يرزق.. ولا أظن إلا أنهم قاتلوه .

ولكن الله هو الذى يخلق الأبطال وهو الذى يحفظهم حتى يؤدوا رسالاتهم .

ولا يملك أوجلان أن يجعل من نفسه بطلا .

إنما البطل رهن الغيب لا يعلم به إلا عالم الغيب .

ولن تظل أمريكا مظلة أبدية تحتمى بها إسرائيل .

وأى ريح أو زلزال أو إعصار يمكن أن يجعل من أمريكا أثرا بعد عين .

وقد ذكر الله فى قرآنه : ﴿ **عادا الأولى** ﴾ التى بغت وطغت واستأسدت .. وكانت تقول .. من أشد منا قوة .. وكانت عاصمتها لؤلوة العواصم .. وسماها القرآن : ﴿ **إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ ويبدو من اسمها أنها كانت ذات أبهاء وأعمدة لا مثيل لها ولا نظير .. فلما قضى الله بزوالها زالت وامحت ولم تترك أثرا يدل عليها .

تلك كانت عادا الأولى .

وأمريكا هى الثانية ..

وهذا مصير الجبارين والعظام المتألهين بعظمتهم على الناس .

ولن تجد لسنة الله تأويلا ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وللذين يتساءلون .. كيف .. وهل ممكن .. وهل يعقل .. وهل .. وهل .

نقول لهم .. وأين روسيا صاحبة أول سفينة فضاء .. وصاحبة أكبر ترسانة للقنابل النووية .

روسيا التى قسمت العالم إلى يمين ويسار وتقدمى ورجعى وألقت به فى حروب لا نهائية طولا وعرضا من أنجولا إلى موزمبيق ومن البرازيل إلى المكسيك وهزت الكرسى البابوى

وأنشأت علما مستقلا اسمه علم الإلحاد واحتكرت لنفسها المستقبل لأكثر من نصف قرن .

أين روسيا الآن من روسيا الأمس وهى تتسول اللقمة وتعطى موظفيها مرتبا شهريا من الكرنب بدلا من الروبلات التى سقطت قيمتها إلى الحضيض .

ولا يبدو فى الأفق مخرج غير التسول وطلب المعونات .

أى خيال مجنون كان يمكن أن يشطح بصاحبه إلى مثل تلك النهاية فى دولة عظمى كان ذكرها يبعث الرعدة فى الأوصال .

لكن الغفلة الشيطانية التى نعيشها فى ضجيج الإعلام وفى ضوضاء التليفزيون وبرامجه البلهاء ينسينا رفقة الحكمة والتأمل والاعتبار .

وتمضى الأحداث تنسى بعضها بعضا ..

والقتلة .. هل تذكرون عصابات القتلة من الهوتو والتوتسى فى رواندا ومليون جثة قتيل يجرفها النهر حتى تسد مجراه .

هل تذكرون من كان وراء تلك المذابح ومن كان يزود عصابات التوتسى والهوتو بالسلاح .. وثروات الكونجو من الماس والمعادن الثمينة وحرب الأطماع الخلفية التى تتنافس فيها فرنسا وبلجيكا وأمريكا وإسرائيل .. وموبوتو سيسى سيكو رجل فرنسا وعميلها ومن بعده كابيلا رجل أمريكا ... وأين الشعوب .. لا توجد شعوب .. إنما يوجد لصوص وعصابات و CIA وموساد ونشل منظم لثروات عالم بدائى لا يعرف له مكانا فى التاريخ .. وظلم بل ظلمات بعضها فوق بعض .. وقتل .. ودم .. وإبادة.

هل يفكر هؤلاء فى ساعة المحاسبة .

لا أحد يفكر .. ولكن لا يوجد شىء أكثر يقينا من هذه الساعة .

والذى خلق هذا العالم الباهر فى دقته وإعجازه .. لن يفلت من يده ظالم .

والذى خلق الإنسان والكومبيوتر .. وما خفى من علوم المستقبل .. لاشك يعلم كيف يكون الحساب دقيقا ولأصغر كسر عشرى .

وفى حساب المواقيت عند ربنا هناك ما هو أصغر من واحد على مليار من الثانية .. وفى سرعات الليزر ما هو أدق من ذلك بكثير .

وحينما يقول ربنا إن عنده الموازين القسط فإن أهل العلم والإيمان يدركون من ذلك ما يشيب له الوليد .

حقا .. إن قلبا لا يسكنه الخوف من الله .. ليس قلبا .. بل مقبرة.


ماذا وراء
بوابة الموت
١٦


ماذا وراء
العاصفة؟

ما يجرى فى أمريكا أمر غير مفهوم .

هذه العاصفة التى شملت كل وسائل الاعلام المرئية والمسموعة والمقروءة وكأنما قامت القيامة على الرئيس كلينتون وعلاقته الجنسية بمونيكا وما حدث فيها من ألوان « قلة الأدب » وما تبقى على الفستان من آثار بيولوجية تخص الرئيس .. وخمسمائة صفحة من اعترافات الآنسة مونيكا مليئة بالتفاصيل وتفاصيل التفاصيل المخلة والمقززة التى ضمنها المحقق كينيث ستار وأرسلها فى ٣٦ صندوقا تحت حراسة أمنية مشددة إلى رجال الكونجرس لتروى أحداث هذه العلاقة «غير الشرعية » مزودة بالرسوم والاسكتشات التوضيحية .

وأفتح فمى فى دهشة وأنا استمع وأتفرج وقد اختلط على الأمر وكأنما يجرى هذا التحقيق فى صحن الأزهر على أيدى رجال الشرع الغيورين .. ثم أعود فاكتشف أنه يجرى فى صحن واشنطن وفى قلب أمريكا التى تنشر أفلامها ومسلسلاتها العهر والفجر والشذوذ والمخدرات فى شباب العالم والتى لا تجد فيها طالب جامعة لا يتأبط فى ذراعه girl freind إلى شقته .. ولكل أمريكى شأن خاص وحياة خاصة يحرسها الدستور الأمريكى ولا يحق لفضولى أن يدس أنفه فيها .. ومغامرات الرئيس الراحل كنيدى مع مارلين مونرو والروايات العديدة عما جرى بين كل

رئيس وسكرتيرته .. حكايات عادية كانت تمر بسلام ولا تفتح فيها ملفات تحقيق ولا عرائض اتهام .. والعهد قريب بالرئيس الفرنسى ميتران الذى لم يجد غضاضة فى أن يعترف بابنة غير شرعية يدعوها على الغداء علنا فى أفخر مطاعم باريس .. ويبتسم الفرنسيون إعجابا برئيسهم وأخلاقه المتحررة .. فماذا جرى هذه المرة فى قلعة الفساد والعهر فى العالم .. وما هذه الغضبة المضرية للحياء والشرع وما هذه الصيحات التى توشك أن تهدد بالجلد والرجم أو خلع الرئيس الفاسق من كل مناصبه .

وهل تنسجم هذه الغضبة الشاملة والمبرمجة بمهارة مع الدور الهدام الذى تباشره أمريكا فى قيادتها الفنية للعالم وهى تدعو بفنونها وأقمارها الفضائية وروایاتها وقنواتها التليفزيونية للتفسخ والتحلل من كل شرع ومن كل حياء .. ومايكل جاكسون البهلول الشاذ جنسيا الذى تصفق له وسائل الاعلام الأمريكية .. أبلغ مثال .

إننا أمام تناقض غير مفهوم وغضبة للأخلاق من دولة لا خلاق لها . .دولة تباشر القتل الأهوج للأبرياء فى غاراتها الجوية على السودان وأفغانستان .. ثم تلبس الحجاب والنقاب وتغضب للشرع فى حكاية مونيكا .

نفاق عظيم من دولة عظيمة .. ورئيسها كلينتون حينما يحاصر بالأدلة ويسمع بخبر التقرير الذى أرسله المحقق كينيث ستار فى ٣٦ صندوقا وفى مئات الصفحات الحافلة بالصور والتفاصيل والأسرار والفضائح التى اعترفت بها عشيقته .. يتحول فجأة إلى شخصية الشاب النادم المعترف بالذنب ويلبس مسوح التوبة ويعتذر لحزبه ولزوجته وابنته وللجميلة مونيكا التى انتهك عفتها

ولأم مونيكا ووالد مونيكا وللأمه الأمريكية كلها .. ويطلب المغفرة من الله والعون من الكنيسة ويتهدج صوته ويبتلع دموعه وتخرج نبراته منكسرة وكأنه ضبط يتبول على نفسه . عبقرية جديدة .. نكتشفها في رئيس أكبر دولة .. وفي كيف يتحول الذئب إلى حمل والنسر الكاسر إلى حمامة وديعة .. وقائد أكبر دولة إلى طفل .

ولكن هل ينجيه ثوب الضعف والندم والاستغفار ؟!!

أشك في ذلك .. وما حدث كان العكس .. فقد أسقطه ضعفه في عيون حزبه .. ولم يجدوا فيه رجلهم القوى الذى يمثلهم .. وتخلى عنه أكثرهم .

ولا شك أن الشرك المحكم والفخ الذى نصب له بمهارة .. والعقول الماكرة التى دفعت إليه بولا جونز ومن بعدها مونيكا لوينسكي ثم ليندا تريب لتسجل عليه الساعات الطوال من أشرطة الغزل الجنسي والفحش والهمس .. وكلهن يهود .

كل هذا كان وراءه خطة لاستدراج الرجل إلى حتفه .. وجبهة تريد تنحيته والإتيان بالنائب النشط آل جور الأكثر موالاة للخطط الصهيونية والرجل الأقوى في مواجهة المواقف .. فالسنة أو السنتان الباقيتان من ولايته هما أخطر سنتين لتحقيق إسرائيل الكبرى .. وربما للإقدام على المواجهة العسكرية المحفوفة بالأهوال وهو ظرف لن ينفع فيه أمثال كلينتون الضعيف المفتون.

إن الصهيونية تريد رجلها .

ولابد أن يتغير المسرح وتتبدل الوجوه .

وما كان أسهل أن تقوم قيامة الإعلام الأمريكى فعملاق الصحافة الأمريكي هو الصهيوني اليهودى روبرت مردوخ الذى يملك وحده أكبر عشر صحف هذا غير محطات البث التليفزيوني ودور النشر .

وهكذا انفجرت البالونة المنفوخة بعناية .

وكان ما نرى أمامنا من عرض مبرمج ومصنوع وفضيحة منسوجة بمهارة وحرفية ليلبسها صاحبنا .. وليلتبس الأمر علينا نحن فلا ندرى ما الحكاية .

وسوف يمضى كلينتون إلى حال سبيله أو يتحول إلى بطة عرجاء تنفذ ما يطلب منها دون مناقشة .. وهو أمر مفيد فى الحالين .

أو يأتى الفتوة الجديد آل جور ليقود السفينة فى الموج المتلاطم إلى حيث تريد إسرائيل .

وهذه هى القراءة المنطقية الوحيدة لهذا العرض غير المنطقى الذى شاهدناه لهذه الغضبة العنترية لعفة لا وجود لها ولأخلاق عذرية انتهت من آجال ولم يعد لها وجود فى القارة الأمريكية ولا فى أى بقعة من أوروبا .

وفى قلب لندن فى الامبراطورية البريطانية العريقة وفى العائلة المالكة ذات التقاليد المحافظة العتيدة طلعت الأميرة ديانا على شاشات التليفزيون لتقول فى جرأة عجيبة أمام الملايين .. لقد خنت زوجى أكثر من مرة .. والزوج المذكور هو الأمير شارلز وريث العرش بجلالة قدره .

وماذا حدث حينذاك ؟!!

صفق لها الشعب واعتبرها قديسة .. ومشى فى جنازتها الملايين .

وهذا هو عصرنا العجيب الذى نعيشه .. فأى غرابة فيما فعل كلينتون باتخاذه عشيقة .. وهو الرجل «الحليوة» المتربع على

عرش أقوى دولة فى العالم .. دولة تزعمت العالم فى اللهو والعهر والفجور .. وجعلت من إعلامها فراش غرام .

وكيف احمر وجه هذا الإعلام فجأة خجلا وراح يتشنج من التقوى والتعفف .. وكيف تحولت الصحافة الفاجرة إلى كردينال يحاكم العشاق ويهددهم بالجلد .

لقد كانت الخطيئة الكبرى التى ارتكبها كلينتون هى مسوح التوبة التى لبسها فجأة ووقف حانى الرأس يقول بصوت مرتجف كطفل ابتلت ملابسه الداخلية .

لقد أخطأت وفعلت فعلا غير لائق .. وأنا مذنب ونادم .

والحق أن ما فعله كان لائقا ومناسبا أشد المناسبة للأخلاق الأمريكية والحضارة الأمريكية التى يمثلها .. وكان ابن هذه الحضارة بحق فيما فعل .. وابن هذا العصر الداعر المنحرف .

ولو أنه قال فى رجولة :

« هذه أمور شخصية تخصنى وحدى وليس لأحد أن يخوض فيها .. حاسبونى على إدارة الحكم وعلى إدارة الاقتصاد وعلى علاجى للبطالة فهذا ما اخترتمونى من أجله » لو قال هذا .. لكان منطقيا مع نفسه ومع منصبه كرئيس ومع دولته التى لا يهمها إلا رواج السوق وارتفاع الدولار .

ولكنه اختار إثارة العطف وتحول إلى طفل .. فخسر كل شىء واستحق السخرية .

ولم نقبل منه بعد ذلك إرساله أرتال الطائرات قاذفات القنابل للإغارة على أفغانستان وضرب مصنع أدوية الشفاء فى السودان.. للتغطية على أفعاله وكانت هذه التغطية منه رجولة مفتعلة فى غير موضعها .

وسوف يظل السامر الإعلامى ومولد سيدنا كلينتون ومونيكا مادة مسلية للفرجة والسهر ومسلسلا مشتعل الحلقات يتجمع حوله العالم مثل مباريات كرة القدم ومسابقات الكأس .

وكالعادة فى أمريكا كل شىء يتحول إلى تجارة « وبيزنيس» وكل مصيبة تتحول إلى مكسب حتى سقوط السيد الرئيس .. والبركة فى المخرجين العظام من وراء الأحداث وأصحاب المصالح فيما حدث ويحدث .

وإذا صادفك حدث غير منطقى فى بلاد العم سام ولم تستطع أن تفهمه عليك أن تسأل من المستفيد ومن الخاسر وما المصلحة ومن هم أصحاب المصلحة .

ولماذا فى هذه الحكاية التى حكيناها كان كل الأبطال يهودا بولا جونز ومونيكا لوينسكى وليندا تريب وباقى سرب الهوانم اللائى ألقى بهن فى طريق كلينتون .. وأعضاء الكونجرس الذين أطبقوا على رقبته كانوا أيضا من نفس الطائفة .

ولماذا احتفظت مونيكا ببقايا السائل المنوى فى فستانها لسنوات ولم تفكر فى غسله ولماذا سارعت ليندا تريب إلى تسجيل مكالماته .

إن ما حدث لم يكن شيئا عفويا ولم يكن عاطفة عابرة ولا نزوة .. وإنما كان فخا منصوبا بمهارة .

واليهود والصهاينة هم أصحاب المصلحة فى أن يمضى كلينتون لحال سبيله ويأتى رجلهم آل جور لأن السلام العربى الإسرائيلى استنفد أغراضه ووصل إلى نقطة تحول .. وكلينتون لم يعد رجل هذا التحول .

وما تبقى من قضايا مع العرب لن يؤخذ بالسلام بل بالحرب .

وهذا الانتقال من الأبيض إلى الأسود دفعة واحدة سوف يحتاج إلى رجل آخر وإلي لغة أخرى وظروف أخرى ومبررات أخرى .

وما نراه الان هو بعض هذا التحول .

وسوف تتغير غدا أشياء كثيرة .

فهل يدرك أصحابنا العرب المتغيرات الجديدة .

وهل ستكون عندهم المرونة الكافية ليغيروا من أنفسهم ومن مواقفهم ومن الثوابت التى دأبوا على ترديدها مثل .. السلام حل وحيد .. والسلام إلى الأبد .. والسلام قرار استراتيجى .. وأغانى مدريد .. وشعارات أوسلو .. وأحلام كوبنهاجن وتسابيح كامب ديفيد.. إلى آخر موال النوم فى العسل .

وإلى متى ذلك النوم

وماذا لو فاجأهم العدوان.

ماذا لو أعلنت عليهم الحرب .

ماذا لو اقتحمت الدبابات حدودهم .

هل فكروا فى هذا الاحتمال .. ؟؟!!

وأقول .. بل هو الآن أكثر من احتمال .. وبعد هذه المقدمات لعزل الرئيس أو تكتيفه أصبح هذا الاحتمال حقيقة .

فهل سأل العرب أنفسهم .. لماذا تكدس إسرائيل السلاح فى ترساناتها .. ولماذا تعقد الأحلاف العسكرية مع تركيا ؟!!

وهل تراها تكدس السلاح ليصدأ فى مخازنه ؟!!

وهل تنفق الملايين بل المليارات هباء على أسلحة كيماوية ونووية وطائرات ودبابات وصواريخ لا تفكر فى استعمالها .

وهل يسمع العرب دوى انفجارات القنابل الإسرائيلية فى جبال لبنان كل يوم .

وهل يذكرون كلام الله فى قرآنه عن الحرب مع إسرائيل .

وهل يقول ربنا فى قرآنه إلا الحق .

هى مجرد كلمات للتذكرة .. ولإعمال الفكر.. ولإعادة النظر .. حتى لا نفاجأ بما لم يكن على البال .

وحتى لا يقول رجال الاستراتيجية عندنا .. هذا أمر لم يكن فى الحسبان .

وسؤال آخر فى حكاية مونيكا وكلينتون يلح على ذهنى .

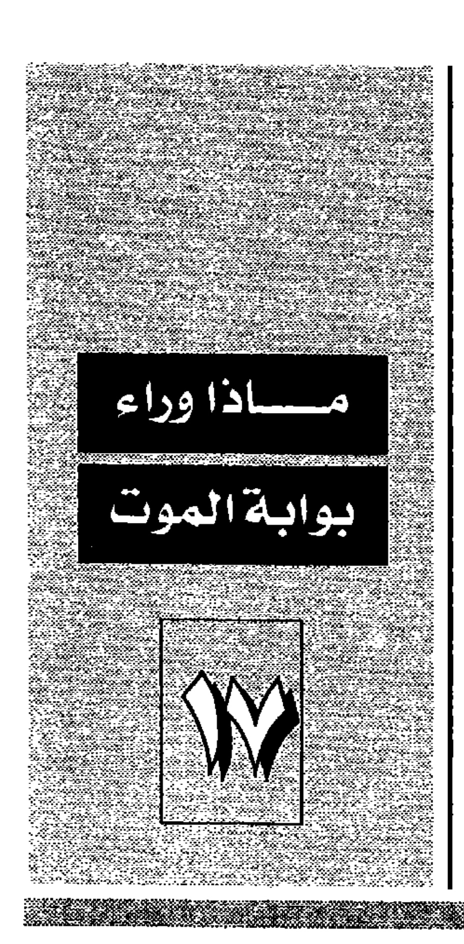
ألم يخطر على بال هذا الرجل المفتون الذى تربع على عرش أكبر وأقوى دولة فى العالم احتمال واحد فى المائة أن تكون هذه العاشقة المتيمة التى ألقت بنفسها فى طريقه وارتمت فى أحضانه يمكن أن تكون جاسوسة تستعمله وتمثل عليه وتسجل عليه مكالماته وهمساته .

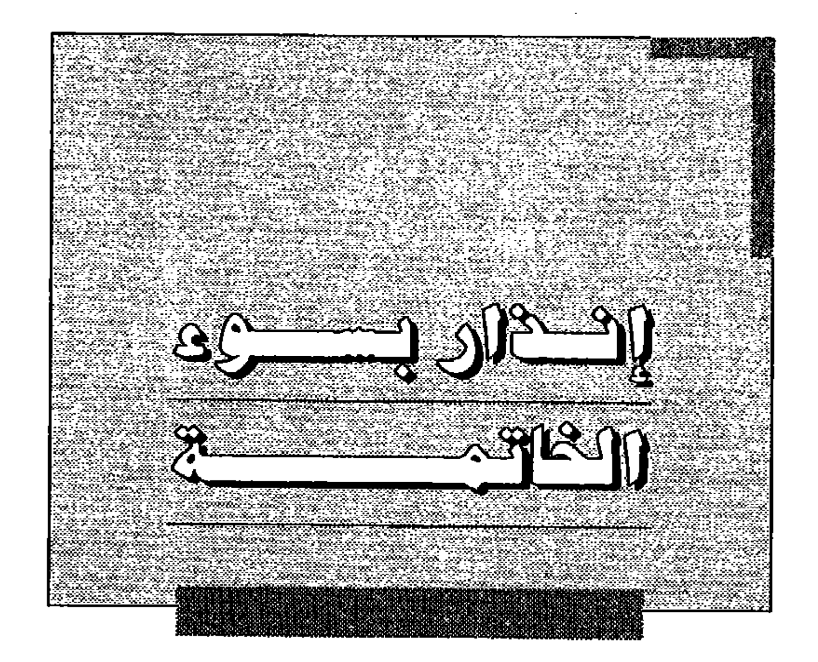
وهل انطمس عقله وضاعت فطنته لأول قبلة .

وكيف يعتذر لها بعد كل ما انكشف له من لعبها بعقله وما حدث من فضحها له واحتفاظها بعينة من سائله المنوى لتشهد بها عليه .. كيف يعتذر لها ويطلب منها الصفح والمغفرة .. وعن ماذا .. ومن الجانى ومن المجنى عليه فى الحكاية كلها .

وكيف يمكن أن يؤتمن مثل هذا الرجل على المنصب الخطير الذى يشغله .

يغلب على ظنى أنه انتهى فعلا .. وأنه ذاهب .. وأن الصهاينة قد حبكوا خطتهم « وقرطسوا الراجل » .. وإننا سائرون بسرعة إلى ذروة مؤكدة .


ماذا وراء
بوابة الموت
١٧


إنذار بسوء
الخاتمة

سهير أحمد السكرى أخصائية اللغويات فى جامعة جورج تاون واشنطن تحكى قصة مثيرة ذكرها الكاتب الإنجليزى E. H. Janser فى كتابه Militant Islam أى الإسلام المقاتل يقول فيها أن إنجلترا وفرنسا قد أجرتا بحوثا عن أسباب قوة وصلابة الإنسان العربى وتمكنه من فتح البلاد المحيطة به من الهند إلى تخوم الصين .. فوجدت أن السر فى ذلك كان طريقة تعليم الطفل العربى وكيف أنه يبدأ قبل الخامسة بحفظ القرآن وختمه وهو الكتاب الجامع لأفصح التراكيب اللغوية وأجمل الصيغ البلاغية التى تنطبع فى الذاكرة فلا تزول مما يحميه من الوقوع فى مرض الازدواج اللغوى (دياجلوسيا) وهو الضياع بين لغتين عامية وفصحى لا يتقن أحدهما .. كما يعطيه القرآن طاقة نضالية وصلابة خلقية وزخما إيمانيا وصلة بالغيب لا تتخلى عنه طول عمره فهو يشعر دائما أنه لا يقاتل وحده وإنما يوقن بأن الله معه ينصره ويؤازره طوال عمره (آخر عدوان على القرآن فى بلدنا كان قرار الأزهر بتقليص درجات الامتحان الشفوى فى القرآن .. وكيف يكون هذا والقرآن كتاب نزل ليقرأ شفاها بحكم تسميته قرآنا .. وعلم القراءات علم أساسى فى التلاوة وعلى الممتحن أن يسمع القرآن من فم الطالب كيف يتلوه وكيف ينطق

آياته .. وأول ما نزل منها : اقرأ باسم ربك .. لم يقل ربنا .. اكتب باسم ربك) .

وقد آمن المستعمرون الإنجليز والفرنسيون بأن المعركة مع المسلمين يجب أن تبدأ من الفصل الدراسى .. من المدرسة .. بتدمير التعليم الدينى (هكذا تقول السيدة سهير) كما تكون بنشر المدارس الأجنبية المنافسة فى كل البلاد العربية .. ومحاربة اللغة العربية وبالانفاق فى بذخ على تعليم اللغات الأجنبية وربطها بالتقدم والتكنولوجيا والعلوم العصرية وفرص الثراء والمرتبات الأكبر .. وجعل القرآن محصورا فى الكتاتيب والمدارس الفقيرة والأسر المعدمة وربط التعليم الأجنبى بالطموح الطبقى والنجاح والغنى .. وفى إحصائية أخيرة اتضح أن محصول الطفل الأجنبى من المفردات اللغوية قبل دخوله المدرسة يبلغ فى المتوسط ١٧٠٠٠ كلمة .. بينما محصول الطفل العربى فى هذه السن تكاد تكون معدومة .

وهى ظاهرة تفسر تخلفنا .. وتفسر أن ما يحدث الآن من حصار للإسلام وضرب للمسلمين هو أمر قديم كان وراءه تخطيط وفكر .. وأن الواجهة البريئة من المدارس والجامعات الأجنبية والثقافات المنافسة لم تكن أمورا تطوعية لخدمتنا بل كانت غزوا منظما مدروسا لفتح ثغرة فى هذا الجدار الصلب الفولاذى الذى اسمه الإنسان العربى والفتح العربى الذى امتد من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى ومن الهند إلى تخوم الصين فى لا زمان .

وتتحدث السيدة سهير عن غزو آخر يواكب هذا الغزو تسميه الـ Junk food.. أو أكل الزبالة وهو الموجة القادمة من أمريكا ..

سندوتشات الهامبورجر والماكدونالد والوجبات السريعة .. وهى تصنع عادة من نفايات اللحوم وزبالتها وليس لها قيمة غذائية تذكر .. وقد جاءتنا هذه الموجة مع هواية الأكل على الواقف والأكل على الرصيف والأكل فى الأتوبيس .. وهى طريقة للأكل غير صحية وهى مسئولة عن حالات التلبك المعوى وسوء الهضم وفقر الدم وسوء التعذية عند الشباب .

ولم تتحدث السيدة سهير عن الزبالة التليفزيونية والزبالة السينمائية من أفلام الرعب والجنس وروايات العهر التى وصلت إلى أعلامنا وقنواتنا الفضائية والتى يتتلمذ عليها البعض من شركاتنا السينمائية والكثير من منتجينا وممثلينا .

وحينما نقرأ الآن عن ضرب العراق وعزم أمريكا الوشيك على إرسال طائراتها وحاملات قنابلها لإسقاط هدايا الرعب والموت على الشعب العراقى الجائع المقهور .. فإننا نعلم الآن أن الضرب مستمر من قديم .. ومن قبل ذلك كانت هناك حرب الخليج التى صنعتها أمريكا صنعا على أيديها وأوعزت بها إلى صدام حسين ليغزو الكويت لتستدرج بعد ذلك العرب إلى المذبحة التى أضاعوا فيها البترول وفتحوا الأبواب للقواعد الأمريكية لتدخل على الرحب والسعة ولتفقد البلاد العربية سيطرتها على أسعار نفطها إلى الأبد.

ومن قبل ذلك كانت هناك حرب العراق وإيران .. والأسلحة للاثنين كانت تأتى من أمريكا .

ومن قبل ذلك كان زرع إسرائيل فى المنطقة العربية وإثارة سلسلة من الحروب لا تنتهى .

والغزو مستمر على جميع الأصعدة .

والإدارة الأمريكية الآن جميعها فى قبضة اليهود والصهاينة وعملاء إسرائيل .

ومن وراء الإدارة الظاهرة هناك جماعات الضغط « واللوبى » وكلهم من اليهود والصهاينة .

والكلام عن الغزو يجر بعضه .

ومنذ متى لم يكن هناك غزو ؟!!

ولكنه الآن غزو جهير وداعر وسافر ومعلن ووقح .

والصهيونية تحاول الآن تشكيل العالم على وفاق مطامعها .

وصدق القرآن حينما خاطب إسرائيل ذلك الخطاب الجامع المانع فى سورة الإسراء قائلا :

﴿ لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ﴾ .

وإذا قسنا كلمة « العلو الكبير » على كبر المتكلم .. فإن المعنى يتضمن فى باطنه كارثة .

ولولا أن رحمة الرحيم عادت فشملتنا فقال سبحانه لإسرائيل فى آخر الآيات :

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴾ .

فجعل من الخاتمةدمارا شاملا عليهم وعلى ما بنوا وعمروا .. لولا ذلك لكانت الآية نذير نهايتنا .

وحسبنا حسن الختام فإننا لا نملك الآن شيئا سوى التمنى .

ولكن يظل فى الآية معنى آخر باطن .. فكيف يدخل المسلمون القدس ويجعلون عاليها سافلها .. وأين تكون أمريكا حينذاك .. وأين يكون أسطولها السادس وبوارجها وغواصاتها ومقاتلاتها التى تجوب الفضاء .. وأمريكا هى حامية إسرائيل والحارس الساهر على سلامتها منذ ولدت .

والجواب واحد من احتمالين .. أما أن أمريكا ستتحول إلى الموقف المضاد المناهض وستنقلب على إسرائيل وتعاون فى القضاء عليها .. أو الاحتمال الآخر .. أن أمريكا لن يكون لها وجود.. وتكون قد غرقت بكامل ولاياتها فى كارثة فلكية .

ولا يعلم الغيب إلا الله .

وتبقى ايات القرآن التى تشير إلى مستقبل إسرائيل وما قضى به ربنا عليها .. من آيات الإعجاز ومن مغاليق القدر المطلسم .. وهى من الآيات التى يذكرها المفسرون فى استحياء ويقولون .. تفسيرها حدوثها .. ويفضلون هذا على التخبط فى التأويل .

وتأتى فى الأناجيل وفى رؤى يوحنا اللاهوتى وفى التوراة نذر بنهايات وكوارث مشئومة مشابهة .. ويعلم الأحبار العجائز بهذه الخاتمة المشئومة لدولتهم .. وفى إسرائيل حزب دينى من أحزاب الأقلية يرفض فكرة إسرائيل الكبرى ويرى أنها لو حدثت تكون فيها نهاية إسرائيل .

ولكن الاندفاع التاريخى يمضى فى جنونه ويرفض ما يتهامس به هؤلاء وهؤلاء .

وكمثل الحجر الهائل الساقط من الجبل سوف تهوى إسرائيل إلى نهايتها دون أن تستمع إلى عظة أو تصغى إلى حكمة .. فهكذا يقول ربنا فى كتابه :

﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ﴾ .

إن ربنا قضى قضاءه وانتهى الأمر .. ولا مرد لقضائه ولا معقب لكلمته .

ويبقى أن نحاول نحن العرب أصحاب القضية أن يكون لنا

إسهام محمود ودور مشرف فى ما يجرى وألا نكون مجرد متفرجين نمضغ أمجادا قديمة عفى عليها الدهر أو نكون خوارج جددا وأحزابا رافضة وطوائف عدمية تتهم هذا وذاك بالكفر وتطعن فى ذمة كل مسلم .

وشيطان اليوم اسمه التطرف وبضاعته اليوم يدفع فيها بالدولار وتدخل فى المزاد دول تبحث عن من يشعل لها النار بأى ثمن وتشترى الفتن والتفجيرات من الذين يفجرونها بأسعار فلكية.

والإرهاب باسم الإسلام أصبح الان له مراكز فى جنيف ولندن وواشنطن .

وإسرائيل هى أكبر مساهم فى لعبة خلط الأوراق الجارية .

والموساد والـ C. I. A تديران هذه الحرب الخلفية .. وهى لا تنفصل عن الحرب الظاهرة ولا عن المفاوضات الوهمية والسلام الزائف ومدريد وأوسلو واحد وأوسلو اثنين وكوبنهاجن إلى آخر مسلسل التمويه والدوخة التى يدوخ معها قارىء الصحيفة العادى فى دوامة يومية ولا يعرف رأسه من رجليه .

ولكن القضية لها رأس .. ورأسها هى القدس .. ولها أرجل .. وأرجلها تتسابق إلى احتلال كل شبر ممكن من الأرض وكل قطرة ممكنة من المياه .. وكل بضعة من التربة الزراعية الخصبة .

وهذا يعود بنا إلى وعد إسرائيل وسورة الإسراء .

ودائما كان قارىء القرآن يدهش لهذه النقلة الفجائية للآيات التى استهلت السورة بهذا التسبيح الرحمانى الجميل .. **﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع**

البصير﴾ .. وفجأة تنقله الآيات فى قفزة واحدة إلى سيدنا موسى .. **﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل﴾** .

وكان القارىء يدهش لهذه النقلة الفجائية ويتساءل عن المغزى والمناسبة بين الإسراء بالنبى محمد عليه الصلاة والسلام إلى المسجد الأقصى وصلاته الجامعة بالأنبياء هناك .. وبين موسى وبنى إسرائيل .. وفى الواقع أن هذه النقلة هى الإعجاز القرآنى بعينه .. وأن هذه النقلة كانت مقصودة .. وكان المراد بها لفت النظر إلى أن الإسلام سيكون له دور هناك.. وأن صلاة النبى إماما بكل الأنبياء فى الرؤيا المحمدية إشارة إلى الدور القيادى للإسلام فى هذه المرحلة الحرجة من التاريخ .. ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن الإفسادتين وإلى العلو الكبير وتأتى إلى النهاية بدخول المسلمين إلى القدس منتصرين وتدميرهم لكل ما أنشأت إسرائيل وكل ما عمرت .. فى سياق متصل ختامه .. «وإن عدتم عدنا» . أى لا أمل ولا قيام لأى إسرائيل كبرى ونحن لكم بالمرصاد .

وسورة الإسراء هى التحدى القائم والمستمر لكل ما تخطط له إسرائيل ولكل ما تحيكه من مؤامرات وفتن وحروب وتأكيد بأن كل هذا سوف يذهب هباء وبأن إسرائيل لن تصل إلى شىء .. ولا خلاص لإسرائيل من شؤم نهايتها إلا بالخلاص من القرآن كله وهذا أمر مستحيل فالقرآن هو كلام الله المحفوظ إلى آخر الدهر .

وسوف تؤكد الأيام مصداقية هذه النبوءة وسوف تضيف إلى القرآن دليلا جديدا من أدلة إعجازه التى تحدى بها ربنا الإنس

والجن وكل من يتـصـور أنه يسـتطيع أن يقلد هذه الآيات أو يأتى بمثلها .

وإن أتى بمثلهـا فكيف يأتى بالمستـقبل وكيف يفض مـغاليق الأقدار وكيف يقلب مقدمات الهزيمة نصرا لم تظهر له شواهد ولم تبد له باديات .. وكيف .. وكيف .

إنه الله الحق مالك الملك الذى أحاط بكل شىء علما والذى يملك الماضى والحاضر والمستقـبل وكل ما كان وما يكون وما سوف يكون وحينما يتكلم فكلامه قدر .

وصدق الله العظيم :

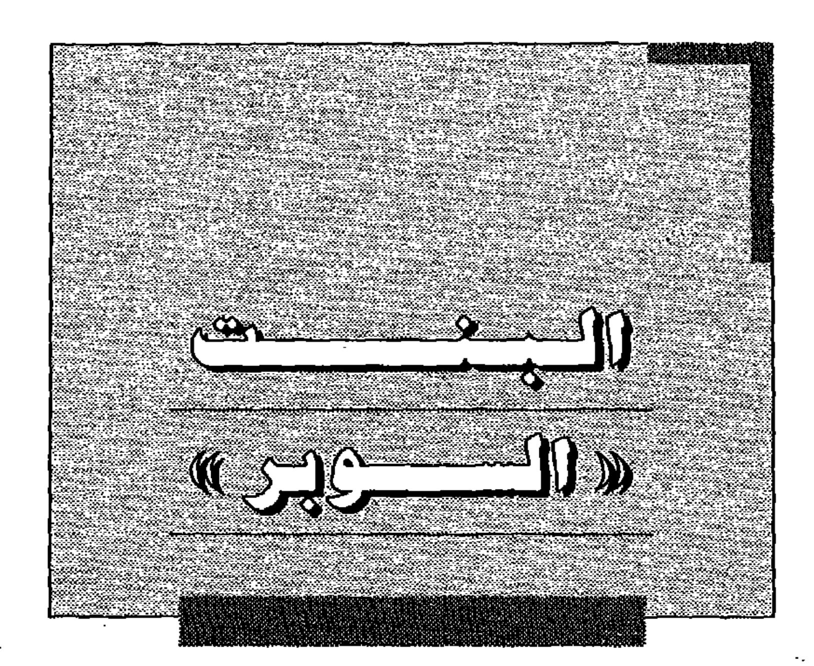
﴿ **إنه كان وعده مأتيا** ﴾ (مريم : الآية ٦١)



مـــاذا وراء
بوابة الموت



١٨



البـنـــت
« الـــوبر »

اللغة العربية تتراجع ومعها أسماء الدكاكين وأسماء المأكولات لتزحف علينا غزوات أعجمية تقتحم علينا حياتنا وتصبغها بالصبغة الأمريكية.. فالقرى السياحية الجديدة تملأ الصحف بأسماء.. الدريم لاند والكورال بيتش وبيفرلى هيلز وجولدن بيتش.

وتدخل هذه الرطانة قاموسنا اللغوى وتحتله.. ونجد أنفسنا نقول.. دادى.. وأونكل.. وتانت.. وبودى جارد.. وكتالوج.. وباسبور.. وستريو.. وسوبر ماركت.. وبون جور.. وباى باى.. وبارتى.. وهاى.. وأوكيه.. وهالو.. وبرافو.. وسوفاج.. وأم بوسيبل.

ويجرى التشويه والعبث فى الألفاظ العربية فنسمع كلمات أمثال «كماننا» يغنيها الجيل الجديد الضائع.. وننسى أننا نفقد بهذا أرضنا التى نقف عليها ونفقد عروبتنا ونفقد قوميتنا ونفقد قيمنا ونفقد خصائصنا.. فلا عجب أن تختفى الشهامة العربية بعد ذلك من الشارع.. وأن يختفى الشرف بمفهومه العربى من البيت وأن تكون العروسة السوبر فى نظر العريس هى مسخ فرانكو أراب.. فهذا هو القالب الجديد الذى يبحث عنه والذى انطبع فى ذهنه من رؤية المسلسلات الأمريكية والسينما الفرنسية.. وهذا

هو معنى التقدم كما أخـذه من التليفزيون ومن أفلام السينما ومن كبـار المخـرجين من حـملة الأوسكار ونجوم الإغـراء من صناع الموضات والأهواء.

ونظرة سريعة إلى أسماء المحلات فى ميدان شعبى مثل ميدان السيدة زينب لا تجد فيه اسما عربيا واحدا وربما عثرت على اسم يتيم بين كل عشرة محلات.. وهذا هو الوصف الدقيق لحالنا.. إننا نتـحول بالتـدريج إلى أيتـام بلا أب وبلا أم.. ونصبح غـرباء عن أرضنا وفى بلدنا ونفقد حسبنا ونسبنا وأصلنا.

والمسـئوليـة تقع على كل واحد فـينا ابتداء من وزير التـربية والتعـليم ونزولا إلى حلاق القـرية.. والاستـعمار الفـرنسى ومن بعده الانجـليزى ومن بعده الأمـريكى يحمل مـعظم الوزر.. ولكن هذا المسلسـل الغاشم من الغزو الأجنبى لا يكـفى لإبراء ذمتنا.. فمصر بموقعها الفاتن والعبـقرى كانت ضحية لموجات من الغزو بلا عدد ولكن كان المـلاحظ دائما أنها تطبع الغزاة بطابعهـا أكثر ممـا تنطبع هى بهم.. وأكثر من دخلـوا مصر تمصـروا أكثر مـما تفرنجنا نحن وهرولنا وراءهم.

والتخلف سبب آخـر فنحن لم نعد ننتج المعرفـة ولم نعد نبدع فى العلوم والمخـترعات وإنما أصبـحنا مستهلكين لمـا ينتج ولما يبدع غيرنا وناقلـين لما يخترع الغرب.. فدخلت علينا المـخترعات الجديدة بأسمـائها.. الراديو والتليفزيون والتليفـون والميكروفون والمـوتور والفريجـيـدير والأنسر مـاشين والـفيـديو والكاميـرا والكومبيوتر والإنتركوم والانترنيت.

نحن صناع الأهرامات لم نعد نصنع ساندوتش هامبورجر ولم نعد نخترع كنتاكى.

ولولا القرآن ولولا الإسلام لانتهينا.. فالمسجد كان حصننا حصينا لم تستطع هذه الغزوة المفترسة أن تقتحمه.. ولم يظهر مسجد اسمه مسجد الدريم لاند ولا مسجد الكورال بيتش ولا مسجد الباليه رويال.. ولا مسجد التانجو.. وإنما هناك مسجد الرحمة ومسجد المغفرة ومسجد قباء ومسجد النور.

ولم يدخل علينا الإسلام غازيا.. لم يدخل علينا ليسلبنا كما يظن البعض.. بل دخل ليعيد إلينا ما فُقد منا.. توحيد نبينا المصرى إدريس.. الذى كان يشع على العالم من جامعة أون (عين شمس حاليا).

وكانت جامعة أون بمثابة أمريكا فى إشعاعها الثقافى والدينى والعلمى فى ذلك الزمن القديم.. ونقرأ أن أفلاطون جاء من اليونان إلى مصر ليتلقى العلم فى جامعة أون.. وليقرأ ما كتب فى مخطوطاتها وبقى فى مصر سنوات يدرس ويتعلم.

وما فعله أفلاطون فعله كل علماء وفلاسفة هذا العصر.. كلهم جاءوا إلى مصر ليتعلموا.. وهذا الكلام تاريخ وحقائق.. وكانت «صحف إدريس» ضمن ما تحتويه مخطوطات هذه الجامعة المصرية القديمة.. وقد قرأها موسى ودرس ما فيها حينما تبناه الفرعون.

وما تبقى من «صحف إدريس» هو ما يعرف اليوم بكتاب الموتى الذى عثر على بعض بردياته فى الأهرامات.. وهو من أجمل ما قيل فى التوحيد من تسابيح.

نحن إذن بلاد علم وفلسفة وتاريخ.. وحالة «الهيافة» الشائعة حاليا فى ثقافتنا وفى تعليمنا وهذا الانحدار فى لغتنا والسوقية فى أخلاقنا والسطحية فى تفكيرنا هى ظواهر غازية وليست

أصيلة.. وهى بقع وقذارات من العالم الغربى أصابتنا أثناء تسكعنا فى أزقة نيويورك.

والقرآن العظيم فى عطائه الإلهى وآياته التى تمكنت من شغاف قلوبنا هى التى ستحفظ لغتنا العربية الجميلة وهى التى ستحفظ قلوبنا من التردى وهى التى ستروى بقية الأصالة فينا.. إنها الحبل الممدود من رحمة الله لإنقاذنا.

ولهذا تحاول الصهيونية من خلال أمريكا ومعوناتها وتوصياتها وضغوطها وعملائها تدمير النظام التعليمى وذلك بتخويفنا من الدين وبتشويه الإسلام ودمغه بالإرهاب.

والتخطيط الآن على اتساع العالم هو صناعة وتمويل إرهاب إسلامى مأجور واستخدامه للتنفير والتحذير من الإسلام تمهيدا لشطب فقه الجهاد من العقل المسلم واعتباره إجراما وإرهابا وفقه الجهاد هو بعض ما قام المشرفون فى الأزهر بشطبه واختصاره من المقررات الجديدة على الطلبة للأسف الشديد.

إنها معركة حقيقية ومستمرة على جميع الأصعدة.. على المستوى الدينى واللغوى والاجتماعى والعروبى والسياسى والعسكرى والوطنى.

ولكنها لن تنجح.. لأن القرآن الشامخ فى لغته الرفيع فى معانيه التقدمى فى تعاليمه السمح فى شرائعه الجميل فى آياته الموسيقى فى إيقاعاته.. سوف يقف سدا مانعا يتحطم عليه مكرهم.

فعندهم المبانى.. وعندنا المعانى

وعندهم علوم الدمار.. (وكان قوم عاد ينحتون الجبال.. وكان عندهم ما هو أبهى من نيويورك.. **﴿إرم ذات العماد.. التى لم**

يخلق مثلها في البلاد﴾ هكذا يقول عنها رب العـالمين.. إنها لم يخلق مثلها فى البلاد) فذهبـوا وذهبت عمارتهم ولم يبق لها أثر.. وبقيت أهراماتنا تدل علينا.

تلك عاد التى أسـماها القرآن **﴿عادا الأولى﴾**.. لماذا وصـفها بأنها الأولى؟؟!

لابد أننا الآن فى زمان عاد الثانية (أمريكا)

وأنه سيجرى على الثانية ماجرى على الأولى.

ويقول الساخرون منهم:

أنتم تنتـظرون ربكم أن يفـعل لكم كل شىء.. فـــهـو يلهـمكم ويعلمكم وينصركم ويداويكم ويشفـيكم ويغنيكم.. وقد جعلتم من أنفسكم عالة.. بل أنتم قوم مهزومون.

ونقـول لهم.. كل الخلق عالة علـى الله من حيث يعلمـون ومن حيث لا يعلمون.

ولا نرى غرابة فى هذا فنحن نشـعر يقينا أننا نحـيا بالله وأننا نرى به ونسمع به ونتنفس بـه.. وكان نبينا يقول لربه.. بك أحـيا وبك أصول وبك أجول ولا فخر لى.. إنها حقيقة نؤمن بها.

فلا علم لنا إلا من مدده

وهو الذى علمكم فأطغاكم علمكم وأنساكم ذكره.

وما الـنصر والهـزيمة إلا تداول النهـار والليل.. والأيام دول.. وما من جبار لم تنتكس رايته.

وكم من منتـصر فى الظاهر وهو مهـزوم القلب أمام شـهواته وغرائزه.. واقـرأوا حكايات مونيكا وكلـينتون.. ولماذا اسـتنكرتم أفعال الرجل وهو يطبق أفكاركم ويمشى على ناموسكم.

أم انهـا صحـوة الفطرة أصـابتكم فلم تـملكوا إلا أن تقـبحـوا القبيح.

أم أنها لبسة المكر وأساليب التآمر ومكياج الأخلاق تضعونه على وجوهكم فى الليل وتغسلونه بالنهار.

احترنا فيكم

ويقولون.. نحن لم نقبح فيه الفعل.. بل قبحنا فيه الكذب.

– ولما تاب وأناب واستغفر ماذا فعلتم؟

– إنه لم يتب ولا استغفر بل استرسل فى الكذب.. إنه ممثل عظيم.

– وهل مدينتكم بأسرها إلا أزياء ومسوح وماكياج وأكاذيب وأكبرها كذبا تمثال الحرية الواقف على مدخل أمريكا.. حرية من وأنتم تستعبدون أحرار العالم وتأكلون أموالهم وتنهبون ديارهم وتحتلون أرضهم.. وهل قامت أمريكا إلا على أنقاض الهنود الحمر الذين أبيدوا عن آخرهم.

وقنابلكم على مصنع الشفاء.. التى حرمت الشعب السودانى من الدواء.. أى حرية صنعت.

ويستمر الكلام إلى الأبد.. ويستمر الجدل فى كل بيت.. وتستمر مكابرة المكابرين.

وإنما أراد الله أن يمتحن الكل وأن يختبر القلوب والنفوس حتى نخاع العظام.

وهو هو وحده الذى يعطى الحرية للجميع ليفعل كل امرىء ما يحلو له حتى لا يعود لأحد منهم عذر وحتى لا تبقى له ذريعة ولا تعود له حجة.. ثم يهدم ربنا الدنيا ويأتى بعاليها سافلها.

ثم يأتى بالكل أمامه فردا فردا

ثم يبدأ الكلام المفيد

وساعتها.. حينما تتعرى النفوس عن أحقادها.. لا يعود هناك مخرج.

فريق فى الجنة وفريق فى السعير

ولقد كانوا جحيم هذه الدنيا وسعيرها بالفعل حتى وهم فيها.

وكانت النار تنقدح فى نظراتهم واللهيب يشتعل فى أحقادهم.

ولقد صدق الشيخ الأكبر ابن عربى حينما تصور ذلك الحوار الخيالى فى قاع الجحيم بين هؤلاء الشياطين وبين ربهم.. وهم فى ثورتهم يجأرون.. كيف تحكم علينا بهذا يارب.

فيقول لهم ربهم..

ما حكمنا عليكم ولكن هكذا كنتم

فهم أهل الجحيم منذ البداية وهم أهل النار الذين هم أهلها منذ أن وجدوا.. ولكن الهيكل الترابى والبدن الطينى كان يخفى حقائقهم..

وقد تنكروا فى هذه الأزياء واستتروا فى هذه المناصب وتخفوا فى هذه الشخوص.. حتى داهمهم الموت فخلع عنهم هذا البهرج وأسقط عنهم هذا الثوب الكاذب الزائف.

فمتى نُسقط عن أنفسنا هذا الزيف بأيدينا قبل أن يفاجئنا الموت فيعرينا هذه التعرية المخجلة.

متى نعود إلى مصريتنا وإلى عروبتنا وإلى إسلامنا وإلى لغتنا وإلى أصلنا.

متى نلتقط قارب العبور فى محيط العولمة الخادع ونكتشف طريقنا إلى نفوسنا وإلى حقائقنا وإلى تميزنا وانفرادنا.. وخصوصيتنا.

إن العودة إلى النفس هى بداية النجاة

ومعرفة النفس هى أم المعارف وبداية الطريق لمعرفة الله.

والبنت «السوبر» لن تصلح لتعمر بيتك

إنهـا قد تـصلح كقطعـة ديكور.. أو كـورق ملون للحـائط.. أو كدمية من السوليفان.. أو فيلم لفرجة ليلة.

ولكنهـا لن تصلح لرحلة عمـر.. لأنهـا فقدت نـفسـها.. فـقدت خصوصيتها.

وكل نسخة من نفوسنا خلقها الله كبصمة الأصبع خاصة جدا وشديدة الخـصوصية وغـير قابلة للتكرار وغـير قابلة للعـولمة.. فهى ذات ليس لهـا مثيل فـى سرها وخصـوصيتـها.. وهى تلمع وتتألق كـالجوهرة كلما حـافظت على هذه الخصوصـية ولم تذب ولم تتعولم ولم تصبح مشاعا.

والنفوس العظيـمة هى التى استعـصت على الذوبان وحافظت على البصمة الإلهية الخاصة فيها.

وما أكثر ما تروج صحافتنا من ضلالات.

وأولى تلك الضـلالات هى «العـولمة» وهى كلمـة مـهذبة جـدا للتـبعيـة والأمركـة وفقـدان الهوية والخـصوصيـة والذوبان فى الهلامية العالمية.

وليس أجمل فى الدنيا من قول لا إله إلا الله.

فإن الله يقول لك لحـظتها.. ولا أحد مثلك.. فـأنت أيضا نسيج وحدك.. وهكذا خلقتك.

نعم.. فلا أحـد مثل أحـد.. وكل واحد منا فيـه «أحدية» تمـيزه تشريفا وتكريما من الأحد الذى خلقه

ولا تحدث الـمثليـة إلا لمن فقـدوا نفوسهـم وفقدوا وجـوههم وضلوا عن خصوصيتهم.

فلنعد إلى أول صفـحة من كتاب المـوتى ونتلو أول عبارة من صـحف النبى إدريس.. إنه الله الواحـد الأحد جل جـلاله لا إله إلا

هو تعالى على الشبيه والمثيل.. ليس كمثله شيء.

هذه الترنيمة السماوية.. التى تتردد منذ آلاف السنين.. هى مصر.

وما دخل الإسلام مصر إلا ليذكرنا بها

ولغتنا العربية هى حصننا ومحفظة تاريخنا وحروف قرآننا.

وهى وجهنا وملامحنا والتفريط فيها تفريط ملامحنا وسحنتنا ونسبنا وهويتنا.

والقرارات التى نزلت بدرجات اللغة العربية فى المجموع إلى مستوى درجات الانجليزية.. كانت جريمة بكل المقاييس.. أن ننزل بلغتنا إلى مستوى اللغة الثانية بارادتنا!!

وإصلاح هذا الأمر.. والنهوض بتعليم اللغة العربية واجب فى رقبة الجالس على كرسى وزارة التربية والتعليم.. فما يصلنا من خطابات بلهاء مليئة الأخطاء يدل على تدهور مستوى هذه اللغة إلى درجة تنذر بالخطر.. ومذيعو النشرات فى التليفزيون يتهجى بعضهم الكلمات.

واللغة التى نتبادلها فى غفلة وخفة هى صنعة إلهية.. والله هو الذى علمها بذاته لآدم.. فهو الذى علم آدم الأسماء كلها.

ومعلم العربية هو خليفة الله فى هذا الشرف الرفيع.. ومن يحلم بمثل هذا الشرف؟!

وندق جرس الإنذار

الفهـــرس

الصفحة

رقم الإيداع
٩٩/٢٠٠٠

الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 - 08 - 0802 - 4